وادي الشيخ عبد العزيز

د .م. هشام الجنزوري

الكتاب : وادي الشيخ عبد العزيز (قصص قصيرة)

المؤلف : د. م. هشام الجنزوري

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع : ٢٤١١ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 – 977 – 493 – 209 – 0

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى – المقطم – القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



قصص

قلب مفتوح

وادي الشيخ عبد العزيز

وقصص أخرى

د . م. هشام الجنزوري

شكر

- أتوجه بالشكر إلى الأستاذة حنان زين الدين لما تطوعت به من جهد في مراجعة قصة وادي الشيخ عبد العزيز.

- الشكر للمهندس أشرف السبكي الذي ساعد على نشر قصصي على كل الصفحات المشترك فيها، وحماسه لإصدار هذا الكتاب.

- لا أستطيع أن أنسى صفحة "الفيس بوكية" فكل الشكر لها ولكل أعضائها الكرام لتشجيعهم وتعليقاتهم التي أشعلت الحماس عندي لجمع قصص هذا الكتاب وأخصُ بالذكر القائمين على إدارتها: د. وائل الجلاد والأستاذة أمل إبراهيم.

- كل الشكر والتحية والتقدير والاحترام للدكتورة إيمان منير خطاب لما بذلته وتبذله على صفحة "قلب مفتوح" من مراجعة وتنسيق وتصميم الصور المرفقة مع القصص على صفحتي، فجزاها الله كل خير.

الجدير بالذكر أن كل الأسماء السابق ذكرها ومع كل ما قدموه لي إلا إنني لم ألتقي بهم من قبل، وما كان بيننا أي سابق معرفة، وما جمعتنا الأقدار يومًا؛ ولكن جمعتنا الأفكار دومًا حتى أصبحت أسماؤهم محفورة في ذاكرتي؛ وإن غابت عني ملامحهم.

أخيرًا.. شكرًا من أعماق قلبي لزوجتي وأولادي لما تحملوه معي أثناء كتابة هذه القصص.

ولزوجتي مني كل حُبٍّ وتقدير، فهي هدية الله لي لتعينني على الدنيا وقسوتها.

هشام الجنزوري

كندا

نوفمبر ٢٠١٤

إهـداء

من قلبٍ مُمزقٍ.. مهاجرٍ في الغربة...

إلى قلوبٍ في الوطن... قلوبٍ أحبها وأحبته :

بكم... أدركتُ معنى كلمة وطن..

من الخارج قد تختلف ملامحنا.. قد تتغير أشكالنا

لكننا من الداخل... كلنا نتشابه

تتشابه الذكريات.. والأحلام

تتشابه الأفراح.. والأماني

تتشابه الجراح.. والأحزان

حتى الدعاء.. يتشابه

نسير في دروب مختلفة، لكنها كلها تنتهي عند نفس الهدف.. الخير للوطن

إلى كل من يشبهني من داخلي

إلى كل من يشبهني في ذكرياتي وأحلامي، في جراحي وأمنياتي

إلى كل من يدعو لهذا الوطن بنفس دعائي

إلى قلوب أحببتها وأحبتني.. قد لا أعرفها وقد لا تعرفني

وكل ما بيننا.. أننا.. يضمنا نفس الوطن

إلى كل هؤلاء:

أهدي اليهم كلمات هذا الكتاب... كلمات من قلب مفتوح.

هشام الجنزوري

وينسور – كندا

٢٠١٤

رجــاء

ربــــي صُــــنْ مصــــرَ فــــي عــــينِ الــــزمنْ
وكــــن عونًــــا لهــــا فــــي الشــــدائدِ والمحــــنْ
مــــن نــــدعوه ســــواك إن الــــبلاء قــــد أذنْ
فبحــقِ النبــيِّ وأهلِــهِ مــن مــات فيهــا وانــدفنْ
وبحــقِ هــاجر وابنهــا كانــت لهــا يومًــا وطــنْ
وبحــقِ موســى ونيلهــا علــى الرضــيع يــؤتمنْ
وبحــقِ عيســى وأُمِّــهِ وجبــالِ ســينا والمــدنْ
وبحــقِ طيبــةِ أهلِهــا وبحــقِ مــن دخــلَ أمِــنْ
وبحــقِ كــلِّ ســجودِنا أطفــئ لهــم نــارَ الفِــتنْ

٧ مايو ٢٠١٢

مقدمة

القروش الخمسة

"القروش الخمسة".. هي اسم أول قصة قصيرة كتبتُها عام ١٩٧٨ وكنتُ في السنة الأولى بكلية الهندسة جامعة القاهرة، وقد تقدمتُ بها في مسابقة للقصة القصيرة نظَّمتها إحدى الأسر بالكلية... هي قصة عادية لا أدري كيف جاءتني فكرتها، ربما هذه الحياة البسيطة كنت أُحبُّ التعرف على ملامحها وأعيش في أشخاصها... القصة تحكي عن رجل موظف بسيط يعيش بمفرده في حجرة صغيرة ويتقاضى راتبه الشهري الذي يكفيه بالكاد، لكنه سعيد، فهذا الراتب يسدُّ حاجاته الرئيسية: مسكنه، مأكله، مركبه، كتابٌ يقرأه؛ كتابٌ واحد فقط كل شهر يقرأه على مهل لينتهي من صفحته الأخيرة مع أخر يوم في الشهر، وفي اليوم التالي يبدأ شهر جديد وراتب جديد وكتاب جديد... وذات يوم؛ وكان اليوم الأخير من الشهر لم يجد معه نقود تكفي ليستقل حافلة إلى بيته فقرَّر أن يعود إلى منزله سائرًا على قدميه.. وفي طريق عودته وجد قطعة معدنية ذات الخمسة قروش ملقاة على الأرض، تسقط على سطحها المعدني أشعة الشمس فينعكس بريقها في عينيه.. يقف

أمامها منبهرًا بهذا البريق، ثم ينحني ليلتقطها من على الأرض ويمسح ما عليها من تراب وهو يفكّر ماذا يفعل بها...
يدور حوار بين الرجل والقروش الخمسة، هو لا يدرى ماذا يفعل وهي تحاول أن تستجديه وتستعطفه ألا يتركها على الأرض، ثم راحت تفتح له أبوابًا كيف ينفقها، لكن كل باب تفتحه لا يستهوي الرجل فيغلقه عليها... حتى ينتهي الأمر بأن يعيد الرجل القطعة المعدنية إلى مكانها على الأرض مرة أخرى وهو يقول لها: "لستُ أنا يا سيدتي من تبحثين عنه.. أوقفني بريقك لحظات، لكنني لن أغيِّر طريقي"... ويتركها ويمضي. وتنتهي القصة.

لا تسألني كيف اخترتُ هذا المبلغ من المال: خمسة قروش.. لكن هذا المبلغ في السبعينيات كان لا بأس به، كما أن الشيء القليل لمن لا يملك شيئًا يكون شيئًا كبيرًا.
الشيء الجميل هو أني فزتُ بالمركز الثاني في هذه المسابقة. والشيء الأجمل والأهم: اثنان فقط هما من تقدما لهذه المسابقة حتى أن الجائزة الثالثة أعطوها للفائز الأول.

على أية حال بعد هذه التجربة راقت لي فكرة كتابة القصة القصيرة. لم يكن المركز الثاني هو الذي جذبني للكتابة، ولكن إحساسي بأن هناك شخصًا ما؛ لا أعرفه ولا يعرفني؛ قد وقعتْ عيناه على كلماتي.. هذا الاحساس كانت تهتز له مشاعري.. لا تسألني لماذا.

قرَّرتُ أن أستمر في الكتابة، ولكن أين الأفكار؟. كنتُ دائمًا أبحث عن أفكار عميقة ورموز مركبة وأحداث جِسام كي أكتب قصة. بقيت هكذا باحثًا عن فكرة من سنة ١٩٨٧ إلى سنة ٢٠١١؛ حيث كتبت أول قصة لي وأنا في الغربة؛ مهاجرًا في كندا.. وهي "بائع البرتقال"، كتبتها في لحظات يأس ونشرتها لا أبحث عن قارئ بل أفضفض بها مع نفسي. لكن جاءتني تعليقات من أصدقائي من أجمل ما يكون وكأني أتحدث عمَّا بداخلهم. وهنا أدركت أنه ليس المهم قوة الحدث ولكن المهم عمق المشاعر في الحدث... في حياة كل واحد منا مواقف كثيرة فيها من المشاعر ما فيها ولكننا نمرُّ عليها مرور الكرام، ولو وقفنا عندها وجئنا بعدسة مكبرة ووضعناها فوق أي من هذه المواقف لرأينا ألطاف الله في قدره، ولشاهدنا كيف أن المشاعر أجسامٌ تتحرك تحت العدسة؛ تتدفق كالأنهار كلها تصبُّ في القلب لكنها تنبع من مصادر مختلفة.. كلمة.. نظرة.. ابتسامة.. أشياء صغيرة ما كنا نظن يومًا أنها ستكون منبع نهر من مشاعر.

ذهبتُ أخلعُ عني كل ثياب طفولتي وصبايا وشبابي، رحتُ أهزها هزًّا حتى تساقطَ منها كل ما فيها من ذكريات وتبعثرتْ حولي على الأرض، فانحنيتُ أضمُّها بين ذراعيَّ.. أداعب هذه.. أضحك مع هذه.. أبكي من هذه.. وأندم على هذه.. وأحمد الله لهذه... وقفتُ مندهشًا وكأني أراها لأول مرة، حتى أني سألتُ نفسي: هل أنا مَنْ

عاش كل هذه الذكريات؟!!! كيف أنها غابت عني.. كيف أني لم أفهم معانيها إلا الآن.

رحتُ أكتب القصة تلو الآخرى، وذكرى من بعد ذكرى، وفي كل مرة أمسك بالقلم بين أصابعي وأضعه على سطح هذه الأوراق حتى تتساقط منه الكلمات وتُرتّب جُمَلاً لستُ أدري كيف جاءت المعاني فيها.. ولكنها العدسة.. أنظر فيها وأكتب ما أراه تحتها... وهنا قرَّرتُ أني لن أبحث عن أفكار.. أنا لن أكون مؤلف قصص، وكان مبدئي :

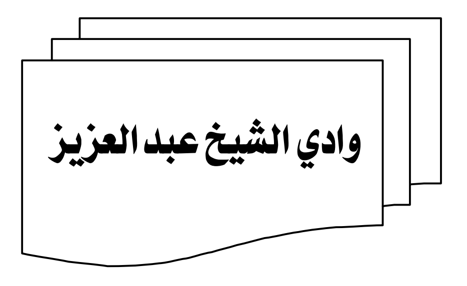
- " لماذا نؤلف..... وحياتنا مليئة بالقصص".

هشام الجنزوري

كندا – ٢٠١٤

وادي الشيخ عبد العزيز

م. هشام الجنزوري



(صيف ١٩٧٩)

§ الجزء الأول : دعـوة أم

- ماما أنا رايح إسكندرية مع أصحابي.
- إسكندرية إيه يا ابني في رمضان؟
- إيه بس؟ هي إسكندرية بتقفل في رمضان؟
- يا إبني ده أول يوم في العشر ليالي الأخيرة من رمضان يعني المفروض تروح تعتكف،تروح تقرأ قرآن،مش تروح إسكندرية.
- أنا لسه مخلص امتحانات الجامعة، وبيقولوا السنة الجاية تانية هندسة صعبة جدًا، ولازم أستعد لها الصيف كله.
- وهاتروح تستعد لها في الإسكندرية؟ أنا مش عارفة إسكندرية إيه والناس صايمين.

- في الإسكندرية برده الناس صايمين. ولا هما بيصوموا في ديسمبر؟
- المهم قلت لباباك؟
- آه.. وهو موافق.. واداني الفلوس ومعاهم كلمتين في العضم.
- طب روح يا إبنى ربنا يهديك ويحميك من كل سوء.
- إيه يا ماما أنا حاسس إني رايح أسهر مع كفار قريش.
- لا يا شيخ! هوه إنت فاكر نفسك رايح إسكندرية خلوة ولا زهد في القاهرة ؟ المهم خلي بالك من نفسك.

تناولتُ مع أسرتي الإفطار، سريعًا ثم أخذتُ حقيبتي وغادرتُ المنزل ذاهبًا إلى الإسكندرية ودعوات والدتي تصحبني إلى الباب.

التقيتُ بصديقيَّ فتحي وبدر، وكلٌّ منا معه حقيبته المجهزة للسفر إلى بحر الإسكندرية، ووقفنا ننتظر صديقًا رابعًا؛ أبو الوفا.. وكان العزم معقودًا على الذهاب إلى الإسكندرية لعشرة أيام، والعودة قبل العيد مباشرة، وكانت النية مُبيَّتة على قضاء هذه الأيام العشرة في شاليه صديقنا الرابع بالمعمورة والسفر أيضًا بسيارته إلى هناك، لكن العزم والنية شيء وإرادة الله ودعاء والدتي شيء آخر.

وصل صديقنا الرابع بسيارته، ثم نزل منها ونظر إلينا، وأخذ يقلّب النظر في وجوهنا وحقائبنا، ثم قال:
- على فكرة إحنا مش مسافرين الإسكندرية.

- ياحلاوتك.. طب وها نسافر على فين كده يا وابور الساعة ١٢؟
- إحنا ها نروح بركة السبع.
- بركة السبع؟ سبع مين يا غضنفر؟
- هو إنت سجلتنا في حملة محو الأمية ولا ها نشارك في تنظيم الأسرة يا أبلة كريمة؟
- يا مساء البلهارسيا.
- يا جماعة اسمعوني للأخر.. والله ها تنبسطوا جدًا.
- قول يا أبا الحج.. ولع عالشاي يا شيخ الخفر.
- إنتم عارفين طبعًا الجامع اللي جنب بيتنا، جامع أنس بن مالك، بتطلع منه جماعات التبليغ والدعوة لمناطق مختلفة لجميع محافظات مصر، تدعو الناس إلى الله وتعتكف في المساجد. وطبعًا إحنا في العشر ليالي الأخيرة من رمضان، والاعتكاف شيء مستحب.
- اعتكاف؟!! هي أمي كلمتك؟
- هكذا قد صدق ظني فيك يا ابن أبي الأقرع! لقد صبئتَ وتركتَ دين بابا و ماما!
- سُك عالشاي يا شيخ الغفر، وهات لنا بخور وحبهان ومستكة.
- ده مش وقت هزار يا جماعة.. أنا عارف شيخ طيب في الجامع اسمه الشيخ عبد العزيز، طالع مع مجموعة لبركة السبع، وأنا قلت له إني أنا وأخويا وتلاتة من أصحابي ها نطلع معاه.

- وطبعًا أصحابك دول هما التلات جرادل اللي واقفين قدامك دلوقتي.

- ياجماعة أنا وأخويا نعرف الشيخ ده من زمان، بس دي أول مرة نطلع معاه.. ما تيجوا نجرب؟ مش هانخسر حاجة.. والحياة تجارب.. قلتوا إيه؟

- يعني الرحلة باظت.. بركات دعواتك يا أمي.. أنا كنت حاسس إنها بتدعي من قلبها.

- يا سيدي ماباظتش ولا حاجة. وبعدين إنتم كنتم كده كده مسافرين الإسكندرية، يعني الوقت موجود والفلوس موجودة.

- هو الموضوع سهل كده؟ تعالوا نجرب.. تعالوا نعتكف.. مش لازم فيه استعدادات؟

- ما فيش أي استعدادات ولا أي حاجة، هي الجماعة معاها كل شيء، إحنا بس هاندفع أكلنا، وده أرخص بكتير من إسكندرية.. والله ها تبقى رحلة جديدة ومفيدة.

- أنا عن نفسي ما بعرفش أعوم، يعني بحر ولا بِرْكة مش فارقة كله محصل بعضه، المهم يبقى ليا طول وأرض أقف عليها.

- وأنا أهلي خلاص سافروا وقلت لهم إني مسافر مع أصحابي، يعني ما فيش عندي اختيار تاني. يا بركة السبع يا أنام في الشارع.

- يعني أنا اللي ها أطلع من المشركين وأرفض الاعتكاف؟ بركة السبع بركة السبع.
- طب حد جاب معاه كوتشينة؟
- يا عم بيقولك بركة السبع.. يعني أخرك ٣ زلطات وتلعب سيجة.
- يا جماعة اتقوا الله. إحنا رايحين اعتكاف.
- طب يا سيدنا الشيخ، الاعتكاف بالليل.. إحنا بقى نضرب بولة إستماشن الصبح وإحنا بنسلي صيامنا.
- هو ها يبقى ٢٤ ساعة إيمان ولا إيه؟ مافيش كده ساعة لقلبك؟
- اركب يا إبني إنت وهو. ربنا يستر وما تفضحونيش مع الشيخ الطيب.
- يا عم مالك قلقان كده زي ما تكون واخد تلاتة من بني النضير معاك في العربية؟
- إحنا لازم نجيب ورق تواليت معانا، ما حدش عارف الوضع هناك إيه.
- خسئت.. كيلنكس يافاجر؟ ثكلتك أبلة فضيلة.
- ياعم وضع إيه بس؟ إحنا رايحين نولد؟ نبقى نجيب من هناك.
- آه.. من هناك نبقى نجيب لك ورق توت تمسح بيه.
- افتح لنا الكاسيت وشغَّلنا عبد الوهاب.. محلاها عيشة الفلاح.

وانطلقت بنا سيارة صديقنا أبو الوفا إلى حيث أراد الله، ونحن لا ندري كيف انتهى بنا الأمر من بحر الإسكندرية إلى بركة السبع.

حقًا يُثاب المرء رغم أنفه، فما كان في نيتنا هذا، ولكنها قد تكون دعوة أمٍّ في جوف ليلٍ بقلبٍ ملهوف على ابنها، فاستجاب لها الله، أو عملاً صالحًا لأبٍّ طيبٍ أخلص النية لله فيه، فحفظ الله له ابنه به. وهذا كل ما نملك لأبنائنا: الدعاء والعمل الصالح، ولا نملك في أمر هدايتهم شيئًا آخر.

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّـهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ (سورة النساء – آية ٩)

• • • • •

الجزء الثاني : صندوق الدين

وصلنا نحن الأربعة إلى مسجد أنس بن مالك في المهندسين أمام نادي الصيد، حيث نسافر منه مع باقي الجماعة إلى بركة السبع للاعتكاف هناك. كانت أول ليلة من الليالي العشر الأخيرة من رمضان، وصلّينا العشاء والتراويح في المسجد، وكانت أول مرة أصلّي خلف الشيخ إبراهيم عزت إمام مسجد أنس بن مالك، ومن يومها وصوته لا يفارق خاطري.

بعد صلاة التراويح، تقدَّم صديقنا إلى شيخه الطيب، وقدّمنا إليه، ثم قال لنا: "هذا الشيخ عبد العزيز. سيكون أمير جماعتنا".

هو رجل في أواخر الخمسينات من عمره، يعمل محاسبًا في إحدى الشركات، لحيته قصيرة اختلط فيها الشعر الأبيض بالأسود، وصوته ذو بحة خفيفة. أما وجهه فتعلوه دائمًا ابتسامة صافية، وعيناه تلمعان بنظرات ملؤها الثقة والتواضع. مع صفاء ابتسامته وبريق نظراته فإنك لا تملك إلا أن ترتاح له...

أبلغنا الشيخ أننا سنعتكف هنا الليلة، وسيكون السفر مع ضُحى الغد... ثم دعا لنا وانصرف.

....

بركة السبع قرية بسيطة. وهذا جامعها الصغير، أمامه ترعة، تظللها شجرة صفصاف كبيرة قد مالت على الترعة وكأنها تنحني لتشرب من مائها، بينما تتدلى أفرع الصفصاف لتلمس سطح المياه الجارية بحنان ولطف، وكأنها تداعب المياه. وتوجد على باب الجامع شجرتان تحتضنان الجامع بين فروعهما، وتمسحان بأوراقهما على جدرانه الطينية وسقفه الخشبي. وكانت العصافير تعشش في الشجرتين، فتسمع أصوات العصافير ولا تراها، فيبدو وكأن الشجرتين تُسبِّحان.

جدران الجامع من الطوب الطيني، ويغطيها طلاء الجير البسيط، وفراش الأرض حصير طيب كأهل هذه القرية اللذين استقبلونا بحفاوة وكرم، لأنهم اعتادوا وصول مثل هذه الجماعات.

أمرنا الشيخ أن نصلّي تحية المسجد، ثم نذهب لنستريح قليلاً من عناء السفر مع الصيام. راح كل واحد من الجماعة يفتح حقيبته ويخرج منها ما يناسب فترة الراحة القصيرة، أما حقائبنا نحن فكانت مليئة بمايوهات وكوتشينات وأشياء أخرى لا تليق بهذا المكان! ولكننا تصرفنا: فأخذ أحدنا كل الملابس ليضعها تحت رأسه، والثاني أخذ الفوط، وآخر أخذ الحقائب نفسها. أما أنا فلا بد أن أضع رأسي على شيء مرتفع، فأخذت إحدى الجزامات الخشبية ووضعت رأسي على أول رفٍّ. كان الارتفاع مناسبًا، لكن هناك أشياء أخرى لم تكن مناسبة لاداعي لشمِّها؛ أقصد ذكرها.

كان كل شيء حولنا أنا وأصدقائي غريبًا علينا في بادئ الأمر، لكن مع بسمات الشيخ عبد العزيز ودعائه لنا واهتمامه وحفاوته بنا؛ وكأننا من أولياء الله الصالحين؛ فقد بدأنا نشعر بشيء من الأمن والطمأنينة.

في البداية كنا نرسم على وجوهنا علامات التجهم والصرامة والجدية، فنحن في صُحبة شيخ من رجال الدين، وهذا ما نعرفه عنهم. لكن فوجئنا أن الشيخ عبد العزيز كان كثير المزاح والضحك بل إنه كان يقول لنا بعض النِكات التي تتناول رجال الدين، أذكر واحدة منها جعلتني أفتح قلبي المغلق لهذا الشيخ الطيب:

- "اشتكى المصلون لإمامهم من أنه يُطيل في قراءة السور بعد الفاتحة، ولما كثرت شكواهم وعدهم بعدم الإطالة. ثم صلى بهم وقرأ بعد الفاتحة آية من سورة الرحمن، وهي (مدهامتان)، ثم ركع. وبعد الصلاة اشتكى الناس ثانية، فقال لهم: "إنها كلمة واحدة" فقال له أحدهم: "ولماذا مدهامتان؟ ألم تكن تكفي مدهامة واحدة؟!"

أهكذا يكون رجال الدين؟ ابتسامات وضحك وإلقاء النكات؟! لقد بدأ شيء في داخلي يهزني، فإن خفة الدم والطُرف مع الأدب والاحترام تكسر كل الحواجز، وتجعل الناس تتآلف فيما بينها. إنها أعظم تأثيرًا في النفوس من الخطب الرنانة والدروس المحفوظة...

هذا ما شعرتُ به نحو شيخنا الطيب، حتى إنني كدت أن أشكَّ في إيمان هذا الرجل، لولا ما رأيت منه في هذه الليلة.

....

استمعنا ليلتها لدرس بعد صلاة التراويح، ثم ذهب كل منا لينام قليلاً على أن نستيقظ قبل الفجر بساعتين لأداء صلاة التهجد، ثم نتناول السحور. ساعات قليلة سوف ننامها.

أقلق نومي رفّ الجزم الخشبي تحت رأسي، فنهضت من رقادي لأجد الشيخ عبد العزيز يتسلل من فراشه بهدوء كي لا يوقظ أحدًا، ثم ذهب يتوضأ. تتبّعتُه بنظراتي، فإذا به يعود ليصلي ركعتين بمفرده في زاوية مظلمة من الجامع، وراح يطيل الوقوف ويطيل الركوع، ثم سجد.. اقتربتُ منه بحيث لا يراني، فسمعت كلمات دعاء ورجاء لم تتضح لي معانيها، وسمعتُ بكاءً يحاول الشيخ كتمانه، ثم توقف عن الدعاء وأخذ يبكي ويبكي، وراح يمسح جبهته في الأرض تضرعًا إلى الله... لست أدري كم من الوقت مضى وهو ساجد، حتى أنني أشفقت عليه، ولكن يبدو أن هناك شيئًا لا أفهمه يجعل هذا الشيخ الطيب يتلذذ في بكائه مع الله... إنه بحق مشهد لعبد بين يديِّ ربه في جوف الليل.. مشهد لم أره من قبل، وهاجت له جوارحي، حتى إنني كدت أن أبكي، لولا أن الشيخ اقترب من نهاية الركعتين، فأسرعتُ إلى مكان نومي.

أتى الشيخ إلينا واحدًا واحدًا يوقظنا من نومنا لأداء صلاة التهجد، وما إن اقترب مني حتى تظاهرتُ بالنوم، فجلس بجواري، وأخذ يهز كتفي بلطف، ففتحت عيني لأجد وجه الشيخ يحمل الابتسامة الصافية نفسها، مع بريق نظراته الساطع، وكأنه لم يبكِ من قبل قط. قمت جالسًا، فراح يدعو لي، ثم قال: "لا تنسني من دعائك"، وكان يفعل هذا مع كل واحد منا.

....

بعد أن فتحنا قلوبنا للشيخ واطمأنت جوارحنا معه، بدأ في تهدئة ثورة شبابنا، حتى رأينا حماقة اندفاعنا الأعمى، فما أجمل أن يتبارى عنف الشباب وحكمة الشيوخ.

في أحد الأيام، كان الشيخ جالسًا على الأرض، وكنتُ أنا واقفًا بجواره أشرب كوبًا من الشاي... بعد أن أدَّينا صلاة المغرب وتناولنا وجبة الإفطار، وكان وقت راحة نتكلم فيه في مواضيع عامة. أخذتني العصبية وأنا أتكلم عن رئيس مصر آنذاك، وقلت بانفعال:

- "كيف لا يتعظ من الرئيس السابق؟ مات ولم يأخذ معه شيئًا من الدنيا، أفلا يخشى الموت؟ أم يظن أنه لن يموت؟"

وهنا، مسح الشيخ عبد العزيز بيده على ظهر قدمي، وأشار إليَّ بالجلوس جواره، ففعلتُ... ابتسم لي قائلاً:

- إن للسياسة والحكم لشهوة كشهوة النساء والمال، ولسنا معصومين ولا أنبياء... وما يدريك كيف سيكون حالنا لو ملكنا هذه الشهوة؟ يا بني، فلينظر كل منا إلى نفسه، إلى قلبه، إلى حاله مع الله.. وليكن الموت واعظًا لنا قبل أن يكون واعظًا للآخرين.. يا بني، عليك بقلبك أولاً ثم قلبك ثم قلبك.

فنظرتُ إلى الأرض خجلاً، وصمتُّ.. ثم حاولت أن أخرج من هذا الإحراج الذي أنا فيه فنظرتُ إليه قائلاً:

- أصبّ لك شاي؟.. الشاي كتير

فضحك الشيخ وراح يدعو لي

....

لم يحدثنا الشيخ يومًا عن ضرورة إطلاق اللحية أو تقصير الجلباب، أو كيفية وضع اليد في الصلاة، ولا حتى عن الموسيقى أحرام أم حلال، وذلك برغم سؤالنا له عنها، ولكن كان شغله الشاغل وهمّه الأوحد هو حُبُّ الله ورسوله في قلوبنا...

وفي أحد الدروس راح يحكي لنا عن علاقة الناس بالدين، فقال:

- إن الدين عند معظم الناس صندوق مغلق، يحملونه فوق أكتافهم دون أن يفتحوه، وإن سألتهم ماذا بداخل الصندوق، سيقولون لك: "عبادات ومناسك.. أوامر ونواهي.. حرام وحلال.. افعل ولا تفعل." هذا كل ما يعرفونه عن الدين الذي بداخل الصندوق

المغلق المُلقى على أكتافهم. إنهم يحملون الدين ولكن بتعب ومشقة، وإذا حاول أي واحد منهم فتح الصندوق ليتعرف على حقيقة ما بداخله، سيجد أول ما يجد على سطح الصندوق كل ما ذكرته لكم، فيقوم بإغلاقه مرة أخرى وحمله على كتفه ثانية، ويتحمل مشقة الدين دون أن يعلم ويفهم.

يا أبنائي، ما أنزل الله الدين إلينا ليعاقبنا به؛ فما أمرنا بالصلاة لذنب أذنبناه، ولا أمرنا بالصوم لخطيئة فعلناها.

يا أبنائي، إنكم لو فتحتم هذا الصندوق وصبرتم قليلاً على ما في أوله من جهد ومشقة، ستجدون أشياءً لا تخطر لكم على بال في أعماق هذا الصندوق؛ ستجدون حلاوة الإيمان، ومتعة القرب من الله، ولذة البكاء بين يديه، وحنين التضرع له.

يا أبنائي، هذه نِعم لو وصلتم إليها لما شعرتم بمشقة حمل هذا الصندوق؛ لأنه عندئذٍ سيكون في قلوبكم وليس على أكتافكم.

هنا، قال له أحد أصدقائي:

- يا شيخنا، وكأنك فتحتَ لنا الصندوق من أسفله؛ فمع قِلة صلاتنا والتقصير في عباداتنا وسوء قراءتنا للقرآن، إلا أننا لمسنا في قلوبنا شيئًا مما تحكي عنه.

فنظر الشيخ إليه، وابتسم قائلاً:

- ما يُدريك يابُني؟ لعلَّ ركعة يركعها شابٌ مثلك الدنيا مُقبلة عليه وهو يشتهيها فيتركها وينام على هذا الحصير، خيرٌ من قيامِ ليلٍ لشيخٍ مثلي أدبرتْ عنه الدنيا وهو قد زهد فيها...

يا بُني، لا تستصغرنَّ عملاً أخلصتَ النية لله فيه.

• • • • •

§ الجزء الثالث : غض البصر

تمضي بنا الليالي العشر الأخيرة من رمضان، ونحن معتكفون في هذا الجامع الصغير بهذه القرية النائية، والشيخ عبد العزيز ما زال يعلِّمنا، يصبر علينا، يحاول أن يُطفئ نيران شهواتنا بكلمات طيبة، تقع في القلوب كقطرات مطر تسقط على أرضٍ جرداء قاحلة.

ذهبنا إليه يومًا نشكو حال الناس من حولنا، ونتساءل كيف أن شبابًا مثلنا يُقبل على الدنيا بأحلامٍ وردية، فيجد من الناس غلظةً في القلوب ورياءً في التعامل وكذبًا في الكلام.. كيف لنا في وسط هذه الجبال الوعرة أن نجد لنا طريقًا آمنًا تستقيم فيه أمور ديننا ودُنيانا؟ طريقًا تطمئن به القلوب، وتهدأ فيه الجوارح، وترتاح عليه الخُطى؟ فالجهد كل الجهد نبذله حتى تستقيم أمور دنيانا، ويتوه منا أمر ديننا.

يبتسم لنا الشيخ، ولا يزيد عن كلماتٍ قليلة يقولها بيقينٍ عميق:

- "أصلح ما بينك وبين الله يُصلح الله ما بينك وبين الناس"... هكذا يُعلِّمنا الإمام عليٌ كرَّم الله وجهه.

ثم ينهض الشيخ من جلوسه، ويستعد للوضوء، ويدعونا لنهيء أنفسنا لصلاة الظهر فقد حان موعد أذانها.

....

ذات يومٍ بعد درس صلاة العصر، قلتُ له:

- يا شيخ مع احترامي للأكل اللي بنطبخه هنا، ومع كل الإعزاز للمياه الجوفية اللي بنشربها من الطلمبة، ومع بالغ حبي وتقديري لرف الجزم اللي بنام عليه.. لكن أنا في الحقيقة لا باكل ولا بشرب ولا بنام، ومع ذلك أنا مش حاسس بأي جوع أو عطش أو تعب... بجد ده شيء غريب.

يضحك الشيخ ملتفتًا إليَّ، وراح ينظر في عيني وهو يقول:

- يا بُني، إن الله خالق كل شيء وخالق أسباب كل شيء؛ فالشبع والظمأ والراحة الله خالقها، وهو قادر على أن يعطيها لنا بدون أسبابها، كما أنه قادر على أن يأخذها منا مع وجود أسبابها؛ فتأكل ولا تشبع، وتشرب ولا ترتوي، وتنام ولا ترتاح.

يا بني، يقول الله تعالى في حديث قدسي: ""يا ابن آدم، خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلي فكن في طاعتي يطيعك كل شيء".

ثم وضع يده على كتفي وراح يدعو لي والبسمة لا تفارق وجهه.

وكان أجمل ما أسمعه منه حين يقول "سيدنا رسول الله" فما زال في أذني إلى اليوم رنين صوته ببحته الجميلة وهو يقولها.

....

تمضي الأيام العشرة، وفي كل يوم أزدادُ حُبًّا للشيخ عبد العزيز. ومنذ أن فتحتُ قلبي للشيخ وهناك سؤال أريد أن أبوح له به، ولكن الحياء من الشيخ كان يمنعني دائمًا. وفي يوم بعد صلاة العصر، نام سائر أفراد الجماعة، وكان الدور علينا أنا والشيخ في خدمة الجماعة؛ من إعداد الطعام وما إلى ذلك. وهنا، قفزت بخاطري حيلة لهذا السؤال، وهي أن أبوح له بسؤالي، وكأني أمزح معه فقلت له:

- يا شيخ عبد العزيز.. بُص بقى.. أنا معاك في كل حاجة.. صلاة، صوم، قيام، قرآن.. كل اللي إنت عايزه.. بس هي حاجة واحدة أنا ما أوعدكش بيها.

فابتسم الشيخ وسألني عن هذا الشيء، فقلت له:

- غض البصر.. بصراحة كده، ومن الآخر، أنا مش هاقدر.. إحنا شباب وإنت عارف بقى وفاهم.. وبعدين وعد مني النظر بس.. يعني مش أكتر من كده.

يضحك الشيخ ويقول لي:

- بماذا تشعر حين تنظر إلى ما تحب أن تنظر إليه؟

بخجلٍ قلت له:

- الجمال شيء جميل.. وبعدين.. يعني قصدي.. أنا برده بحس بمتعة.. نظر بس مش أكتر.. إحنا شباب وغصب عننا.

يترك الشيخ ما بيده من طعام كان يعده للإفطار، ويقترب مني ويقول لي:

- يا بُني ما زلت لا تفهم ما قلته لك سابقًا.. إن المتعة من خلق الله، وهو قادر على أن يعطيها لك دون أسبابها.. فقط أخلص النية لله.

ثم يُمسك الشيخ بيدي، وكأنه أب يخشى على ابنه أن يتوه منه في زحام الدنيا، ويُكمل حديثه هامسًا:

- يا بُني، أنا لن أقول لك غُض بصرك لأن هذا من شيم الرجال..
يا بُني، أنا لن أقول لك غُض بصرك حتى يحترمك الناس كما احترمتَ محارمهم..
يا بُني، أنا لن أقول لك غض بصرك لكي يرى فيك الناس خُلقًا كريمًا..
يا بُني، أنا لن أقول لك غض بصرك كما تحب أن يغض الناس بصرهم عن محارمك..
أنا لن أقول لك هذا مع أنه كله حق.. ولكن سأقول لك غض بصرك وفي قلبك شيء واحد فقط، هو ابتغاء مرضاة الله... يا بُني، إذا قابلتك الفتن في الطريق لا تهرب منها جبانًا، بل اقترب ثم توجه بقلبك إلى الله داعيًا: "إلهي، هذه فتنة أشتهيها أمام

عيني، وإني أشم رائحتها.. ولكن لا شيء يمنعني من النظر إليها إلا رضاك عني. إلهي إني تركت حرامك مع قربي منه، وهوى في نفسي إليه، فيسِّر لي حلالك مع حُبٍّ في قلبي لك".

صمت قليلاً ثم أكمل قائلاً:

- يا بُني، قد تضعف مرات وتنظر إلى الحرام، لكن لا تيأس من رحمة الله... فوالله لمرة واحدة تجعل فيها رضى الله في قلبك أحبُّ إليك من كل شهواتك، مع ضعفك وحاجتك، سوف تكون لك نورًا ما بعده نور، وليُلقين الله بها في قلبك لذةً تشتاق إليها كلما مررتَ على حرام، ليجعلن الله مُتعتك في غض البصر وليس في النظر.. يا بُني، أكثر من دعائك "اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك".. يا بُني، عليك بسورة يس.. فإن يس لِمَا قُرئت له... وهى قلب القرآن.

....

صلي بنا الشيخ ليلتها صلاة المغرب، وراح يقرأ:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

وكأن الشيخ يقرأها لي... وكأن الشيخ مازال يعلمني.. فهل تعلمت؟

• • • • •

§الجزء الرابع : أنا هذا الرجل

ما زلتُ مع ذكريات شيخي عبد العزيز في العشر الأخيرة من رمضان، معتكفين في جامع بقرية بركة السبع. كنتُ في السنين الأولى من دراستي الجامعية، وما زلتُ أتصفح الذكريات واحدةً تلو الأخرى، وأرتوي من كلماته كلما اشتدَّ بي الظمأ.

كان الشيخ عبد العزيز يأخذنا ويخرج بنا إلى أهل القرية، ويكلمهم أفرادًا، يعظهم ويدعوهم إلى الصلاة في المسجد، ويطلب منهم حضور درسٍ بعد صلاة العصر. وقبل أن نخرج إلى القرية، كان يقف بباب الجامع، ويدعو دعاءه الجميل: "اللهم اهدنا.. واهدِ بنا.. واجعلنا سببًا لمن اهتدى". كان يفعل هذا كل يوم.. وفي كل يوم لا أحد يسمع.. لا أحد يهتم.. ولا أحد يُجيب.. بل إن نظراتهم كانت مليئة بالسخرية والإزدراء...

وذات يوم، استنكرتُ هذا كله، وقلت له غاضبًا:

- أتظن أنك بهذه الكلمات البسيطة التي يعرفها كل الناس، وبتلك الدقائق المعدودة التي يستبطئها كل من تقف معه، أتظن أنك بها تهدي الناس؟ أنا أنظر إلى عيونهم وأنت تتحدث معهم، فقلوبهم أبعد ما تكون عما تتحدث أنت به.

فإذ بالشيخ يبتسم، ويضع يده على كتفي، ويقول لي:
- يا بني، إننا لم نخرج في سبيل الله لنهدي الناس فحسب، بل خرجنا لنهدي أنفسنا أيضًا... يا بُني نحن نُذكرهم بالله حتى لا تنساه قلوبنا.

نظرت إليه وأنا لا أفهم ما يقول، ولكن في اليوم التالي فهمت ما كان يقصد شيخي.

....

ذهبتُ معه إلى رجل بسيط يعمل في تصليح الأحذية القديمة في دكان صغير، لا يكفي حتى أن يجلس الرجل بداخله؛ فهو يجلس على باب الدكان، وحوله تتناثر الأحذية المتهالكة، وكأنها صرعى وضحايا لسنين عجاف، وحال الرجل من حال أحذيته.
يبدأ شيخي في الحديث معه بكلمات بسيطة عن حُبِّ الله الخالق الرزَّاق، ثم يطلب منه أن يأتي إلى المسجد لأداء صلاة العصر معنا في جماعة، ولكن الرجل يمتنع لضيق الوقت ويتعلل بالعمل، وأنه لابد من إطعام أولاده وزوجته. فراح الشيخ يحدثه كيف أن الرزق بيدِّ الله، يرسله لمن يشاء ويبارك فيه لمن يشاء.. فتهكّم الرجل من شيخنا، وقال له:
- أتراني إن ذهبتَ معكم إلى الصلاة ثم عدت إلى دكاني، أسوف أجد جنيهًا هنا على مخيطي هذا قد أرسله الله لي رزقًا لأولادي؟

ثم أدار الرجل لنا ظهره، ونظر في نعل حذاءٍ فانٍ كان بيده، وراح يكمل تصليحه.

تغيّر وجه الشيخ، لكنه رسم على شفتيه ابتسامة حزينة، ومعها دعاء للرجل بسعة الرزق، ثم تركه ومضى ومضينا معه.

كلمات هذا الرجل هزتني... أفزعتني... ليس فقط لسوء أدبها، ولكن رأيتني وكأني أنا هذا الرجل.

نعم، أنا هذا الرجل.. أنا إن لم أقل ما قاله الرجل بلساني، إلا أن هذا هو حال قلبي.. ورأيت وكأن الله أخرج ما في قلبي على لسان هذا الرجل.

نعم، أنا هذا الرجل.. وهذا ما في قلبي.. وإن كنت أستحي أن أقوله بلساني، فقد قاله الرجل عني ليفضحني أمام نفسي، ويعرِّي قلبي أمامي، فينزع ما عليه من ثياب النفاق... فما ذلك الرجل إلا مرآة كنت أقف أمامها، لأراني أتحدث بسوء أدب عن الله.

نعم، أنا هذا الرجل.. بل إنني أكثر نفاقًا منه؛ فالرجل يبوح بما في قلبه أما أنا فأتظاهر بالإيمان، بينما في قلبي ما في قلبه.

نعم، أنا هذا الرجل.. وقد زلزلتني كلماته، وذكرتني وأنا أذاكر دروسي ولا أصلي، وإن صليت لا أذهب إلى الجامع، ونفسي تحدثني دون أن ينطق لساني: أتراني لو تركت كتبي وذهبت إلى الجامع، فمن سيذاكر عني؟ هل سأفهم الكيمياء في سجودي؟ هل ستُحل مسائل الرياضيات بالدعاء؟

نعم، أنا هذا الرجل.. فنحن لا نملك من الدنيا إلا حطامها، ولا نتأدب في الحديث مع الله، فماذا سيكون حالنا لو أعطانا الله بعض نعيمها؟

....

عندما حلَّ المساء، حدثتُ شيخي بما كان مني عندما سمعتُ كلمات هذا الرجل، فابتسم وقال:

- لهذا خرجنا يا بني؛ لنرى أحوال الناس، فأحوالهم من أحوالنا: نحن لا نرى عيوبنا، ولكننا نرى فقط عيوب الناس. وما الناس إلا أنا وأنت، وما ضعفهم إلا ضعفنا، وما عيوبهم إلا عيوبنا، وما القلوب إلا بيدِّ الله، يقلّبها كيف يشاء، فنحن حين نكلّم الناس عن الله إنما نكلّم أنفسنا؛ ليثبِّت الله قلوبنا على ما يحب ويرضى. تذكر يا بُني قول الله تعالى في أصحاب السبت في سورة الأعراف:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّـهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

يا بني، هل فهمت لماذا نعظ الناس؟ معذرة إلى الله ًأولاً.. ثم لعلهم يهتدون ثانيًا... لعلهم يا بني؛ لأن الهداية من الله وليست من

كلماتي. هل فهمت يا بني أواخر الآيات؟ وعدٌ من الله أن يُنجي الذين ينهون عن المنكر، ووعيدٌ للكافرين بالعذاب. أما من شاهد المنكر ولم يتحرك، ومَن شاهد المنكر ولم ينهَ عنه، بل تعجب ممن ينهون عنه، فالآيات لا تذكر مصيرهم؛ فهم بين يدي الله يرحم من يشاء ويعذّب من يشاء.

يا بني، ما دعاؤنا للناس بتقوى الله إلا لنزحزح أنفسنا داخل حدود وعد الله بالنجاة، ثم لعلهم يتقون.

نظرت إلى الشيخ طويلاً، وهناك سؤال يريد أن يفلت مني وأنا أحبسه بين جنباتي، ولكنني وجدت الشيخ يقرأ أفكاري، ويقول لي:

- لو كان في الأمر ما يُشعل نيران الحيرة في قلبك، فاسأل يا بني، لعل الله يهديني إلى إجابة.

فأخذت أنتزع السؤال من بين أنياب حيرتي، وقلت:

- حيرَّني أمر هذا الرجل؛ فقد قدر الله عليه رزقه، وجعله في نعال أحذية بالية، وإذ به يصمُّ قلبه عن متعة الإيمان؛ فلا نصيب له في الدنيا ولا حظَّ له في الآخرة، فكيف سيحاسبه الله؟

صمت الشيخ قليلاً، ثم نظر إليَّ قائلاً:

- يا بُني، إن الله عادل... لكن عدل الله ليس كالعدل بيننا: ظالم ومظلوم، متهم وبريء... للعدل صفات وأسباب، نعمل بها في الدنيا، أما الله فهو خالق الصفات والأسباب، وهو خالق العدل،

وعقولنا لا تدرك عدله... نحن يا بني لا نعلم كيف يرزق الله العباد، وهم بيننا على اختلاف عقولهم، فكيف لنا أن نعلم كيف سيحاسبهم وهم بين يديه على اختلاف حالهم؟

وأمسك الشيخ ذراعيّ بكلتا يديه، وأخذ يهزني بلطف وينظر في أعماق عيني، وقال:

- يا بني، لا تشغل بالك كثيرا كيف سيحاسب الله العباد، وكل عبد على حال... وليكن شغلك الشاغل: كيف سيحاسبك الله أنت على حالك أنت؟

يمضي الشيخ ويتركني ارتجف، وشفتاي ترتعشان وأنا أهمس لنفسي:

- كيف سيحاسبني الله أنا.. على حالي أنا.. وأنا مازلت هذا الرجل؟

• • • • •

§الجزء الخامس : لحسة عسل

ما زلتُ جالسًا تحت أشجار ذكريات الشيخ عبد العزيز، وما زالت أوراقها تتساقط على خاطري وفي وسط آلامي.. ابتسمتُ حين رأيت ذلك اليوم يلقي بظله على وجهي، ويأخذني من يدي كي أعيشه مرة أخرى مع شيخي عبد العزيز.

كنتُ في ذلك اليوم في خدمة الجماعة مع الشيخ عبد العزيز، وأعطاني بعض النقود لأشتري سحورًا للجماعة، فنظرتُ إلى النقود ثم نظرتُ إليه، وقلت:

- يا شيخنا هذه النقود لا تكفي لسحور طفل لم يبلغ الحُلم! فكيف بجماعةٍ، ما شاء الله، عندها جبال حسنات من الأكل الحلال؟!

فابتسم الشيخ، وقال لي:

- لقد أكرمناهم في الإفطار، وهذا كل ما تبقى للسحور. فاذهب على بركة الله، وافعل ما تستطيع.

ذهبتُ إلى السوق وليس لي سابقة خبرة بهذه الأمور، وكيف أدبِّر وأوفِّر... وقفت عند البقال وسألت عن الأشياء الأقل سعرًا، ثم اشتريتُ بكل ما معي من نقود خبزًا وعسلاً أسود، وأعطاني البقال وعاء أضع فيه العسل على أن أُعيده إليه لاحقًا.

أمسكتُ بالخبز والعسل ومضيتُ عائدًا إلى المسجد، فإذ برائحة العسل تملأ كل حواسي، فيسيل لها لعابي. حيرَّني أمري؛ فأنا لا أُحبُّ العسل الأسود، ولا حتى الأبيض، ولا أميل إليه، ولكنه اليوم شيء آخر أشتهيه، ولا أعرف لماذا! ربما بسبب هذه الرائحة التي راحت تملأ كل كياني، فوددتُ لو أغمس إصبعي في الوعاء لآخذ لحسة من العسل، ولكن شعورًا بحُرمة ذلك منعني عنه؛ فالشيخ علَّمني أن من آداب الخدمة أن نكون أخر من يأكل.

رحت أبطئ خُطاي، وكانت نسمات الهواء تحمل رائحة العسل وتلقيها على وجهي، وأنا أقاوم ما استطعت، وشعرتُ وكأن شيطانًا يجلس في أنفي، يأخذ رائحة العسل ويلقيها في أعماق أعماقي.

ولما تجاهلته، بدأ اللعين يحدثني، فقال:

- شامم ريحة العسل يا مولانا؟!

- يا عم الشيطان أنا ما بحبش العسل. ثم أنا مش مولى حد!

- بس ده مش أي عسل.. ده عسل بتاع بلاده ولسه طازة.. طب حتى دوق!

- يا عم الشيطان مش بحب العسل، ومش عايز أدوق!

- بس لحسة واحدة يا مولانا!

- يا عم الشيطان قلت لك أنا مش مولى حد.. ومش هاخد لحسة لأنه حرام، ودي أمانة، ودي فلوس ناس بتصلي في الجامع اللي قُدَّام على الشمال.

- في إيه يا عم الحاج؟ هوه أنا بقولك خد العسل واهرب بالعيش؟ دي بس لحسة.. لحسة يا حاج!
- أولاً أنا مش حاج.. ثانيًا حتى لو لحسة برضه حرام؛ لأن ده مش من حقي. والعسل ده أمانة وحرام أخون الأمانة.
- تاهت ولقيناها يامولانا.. مش إنت لك جزء في العسل ده؟ خلاص خد لحسة دلوقت عشان تدوق طعم الريحة الجميلة دي، وعلى السحور خد نصيبك ناقص لحسة!
- يعني تفتكر كده مش حرام؟
- حرام مين يا مولانا؟ ده عسل! نعمة من ربنا... خد لحسة يا راجل.. خد!

اقتربتُ بوجهي من طبق العسل، وأخذت شهيقًا عميقًا حتى ملأتْ رائحته كل الشعب الهوائية والرئتين والقصبة الهوائية، وراح يهزني الحنين، وما إن هممتُ بأخذ لحسة حتى تذكرت كلمات الشيخ عبد العزيز؛ وقوله إنه من الأمانة ألا نأكل حتى يأكل الناس، فعدتُ لنفسي قائلاً:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
- إيه يا سيدنا بتشتم ليه؟! يعني الحق عليَّ اللي بشوفلك حل في المشكلة بتاعتك؟!
- يا عم أنا ما عنديش مشاكل.

- إنت مش نفسك تاخد لحسة من العسل وعاملها من الكبائر؟! دي لحسة يابه!
- طبعًا من الكبائر لأني خارج في سبيل الله، وكل حركة لازم تكون لوجه الله.
- ماشي ياملانا. خد لحسة وبرده في سبيل الله.
- إزاي بقى؟! الله يخرب بيتك!
- مش إنت شامم ريحة العسل ونفسك فيه؟
- آه!
- وعينك هاتطلع عالعسل؟!
- آه!
- طب لو عينك في العسل وماكلتش منه، مش أي واحد ها ياكل منه ممكن يحصلة حاجة وحشة؟! يتسمم مثلاً؟!
- يا ابن الجنية! تعرف إن عندك حق؟!
- أيوه! يعني إنت بتاخد لحسة عشان تحمي باقى الجماعة! ده إنت هاتاخد ثواب فيها دي يا معلم!

اطمأن قلبي لهذا الرأي! وبسرعة ودون تفكير، وقبل أن يستيقظ ضميري، وضعت إصبعي في العسل وأخرجته واضعًا إياه في فمي، لتستقر لحسة العسل على لساني وبين فكي، ورحت أتلذذ بطعم العسل. لكني وجدته الطعم نفسه الذي ما كنت أحبه. وهنا، بدأ ضميري يستيقظ، ورحت أخرج إصبعي من فمي ببطء وندم،

وإذ بي أشعر بشيء خشن في فمي، أخرجته بطرف إصبعي، فإذا به ذبابة كانت في العسل وأخذتها مع اللحسة في فمي! فألقيت كل ما في فمي من عسل على الأرض، وأسندت رأسي على سور بجواري وأنا أتصبب عرقًا، لست أدري أكنتُ مُشمئزًا أم خائفًا أم نادمًا على ما فعلت. لقد كان عقاب الله أسرع من ذنبي، فهل كان ذلك رحمة منه أم غضبًا؟ لا أدري.

أخذت العسل والخبز، وعدت إلى مسجدي بندم وحسرة، والغريب أنني ما عدت أشم للعسل أي رائحة، ورحت أضغط على أنفي بشدة لأقتل الشيطان داخله، لكني سمعت ضحكاته وهو يجري بعيدًا عني.

وصلت المسجد، وكان أول ما فعلته هو أني أخذت الشيخ عبد العزيز جانبًا، وقصصت عليه ما حدث، وأبلغته ندمي لأني أكلت من العسل قبل الجماعة ودون علمهم، ولكن الله عاقبني على فعلتي هذه.

ابتسم الشيخ، ثم وضع رأسي بين يديه، وقال:

- يا بُني، هذا أول الطريق: أن تحاسب نفسك على صغائر الأمور، وألا يهون عليك ذنب، وأن ترى الله في كل سكناتك وحركاتك.

يا بُني، إن الله يكلمنا.. يحاورنا.. يرسل لنا رسائل كل يوم.. والغافل من لا يرى رسائل الله.. والتقيُّ من يفهم الإشارات ويتعظ بالأمارات؛ فلحسة من عسل بها ذبابة قد يغفل عنها غافل

ويمرُّ عليها مرور الكرام، ولكنها يا بني ذنب وعقاب.. سؤال وجواب.. حوار مع الله ورسالة منه إليك.

يا بُني، إن الله يعلّمك ألا تخون الأمانة، ولو بلحسة عسل، فإن الله يحب العمل النقي التقي الطاهر.

يا بُني، ما من خطوة نخطوها أو طريق نمشيه إلا ولله فيه حكمة، يظنها الناس صدفة ولكنها رسالة الله إليك. فافهم يا بني الرسائل واتعظ بالإشارات.

فنظرت في عينيّ الشيخ، وقلت له:

- لكن يا شيخنا هذا الذنب يُخجلني؛ كيف أني ضعفت أمام ذنب لا أحبه، فما حالي وذنوب أشتهيها؟

- يا بني، أما وقد فهمت وندمت فلا تخجل من الذنب؛ فالله غافره، ولا تستحي من التوبة فالله قابلها.

يا بني، لئن تتقِ الله في الصغائر ليُعيننك على الكبائر، ولئن تعصم نفسك من ذنوب تقدر عليها ليُثبتنَّ الله قلبك عن ذنوب لا طاقة لك بها؛ فالله أعلم بضعفك منك.

نظرت إلى الشيخ وما زال الحياء يقتلني، وقلت له:

- يا شيخنا، كيف وقد خُنتُ الجماعة؟

- يا بني، لا تبتئس فرحمة الله أوسع مما نظن... فقد علمَّك الله درسًا وأنقذنا من الذبابة... ولو كان الشيطان يعلم أن بالعسل

ذبابة ما وسوس لك حتى لا تتعظ؛ وليترك الذبابة تؤذينا جميعًا في سحورنا.. يا بني، إن أمر الله كله خير لو نفهم.

....

ثم كانت آخر ليلة من الليالي العشر الأخيرة من رمضان، وكانت ليلة العيد. صلينا الفجر خلف إمام المسجد، ثم تقدم الشيخ عبد العزيز ليلقي علينا درسه الأخير، وكان الجامع قد امتلأ بكثير من أهالي القرية الذين ألفونا وألفناهم، وعرفونا بأسمائنا وعرفنا بعض أسمائهم، وقد جلسنا جميعًا بعد صلاة الفجر في انتظار صلاة العيد. بدأ الشيخ درسه، وكان عن القلوب واليقين، وتجلى حتى بكى وأبكى، والفجر يطل علينا من نوافذ الجامع، ثم أنهى الشيخ درسه بهذا الحديث:

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ فقال:
{ يَا غُلَامِ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ؛ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ }.

أنهى الشيخ حديثه وسط همهمة الحضور، ثم جاء خلفي ودفعني بيده لأقوم. ظننته يريد أن يجلس مكاني، فتعجبتُ والتفتُ إليه

بسرعة، فأشار لي بيده أن أتقدم أمام المنبر حيث كان يقف لأحدِّث الناس... شعرتُ بقلبي ينخلع من بين ضلوعي، وبقدميَّ ترتعشان، وأرسلتُ نظرات عينيّ إليه بسرعة البرق لتتأكد من حقيقة الأمر وتسأله بدهشة: ماذا يعني ذلك؟! فابتسم الشيخ وأومأ برأسه أن امض... وقفتُ وتقدمتُ إلى المنبر، ظهري للناس وقدماي لا تقويان على حملي، ثم رحت ألتفت بجسدي ببطء شديد تجاه الناس، وما إن وقع نظري عليهم حتى أرهبتني العيون الشاخصة التي أحاطتْ بي، والآذان الصاغية التي التفتْ حولي... لا أدري أمرَّتْ ثوانٍ أم سنون رحتُ أقلّب فيها نظري هنا وهناك، حتى وقعت عيناي على رفِّ الأحذية الخشبي الذي كنتُ أنام عليه، فخفق قلبي بشدة، ثم وقعت عيناي على حقيبتي، فتذكرت ما بداخلها، وحالي حين جئت إلى هنا، وسمعت دعاء والدتي في أذني وأنا خارج من المنزل أظنُّ نفسي ذاهبًا إلى بحر الإسكندرية لأقضي فيه ليالي رمضان الأخيرة، ثم وقع بصري على الشيخ عبد العزيز وقد راح ينظر إليَّ بكل حواسه، وكأنه تلميذ ينتظر الوعظ من أستاذه.. فسالت من عيني قطرة دمع..

أول قطرة دمع في بيت الله..

أول قطرة دمع في حُبِّ الله..

أول قطرة دمع تُبلّل خدي.. لا أعرف من أين جاءت..

أول قطرة دمع ومعها أحاسيس لا أعرفها، ومشاعر ما جاءتني من قبل..

تذكرتُ بكاء الشيخ عبد العزيز في جوف الليل وحده.. آه يا شيخ عبد العزيز؛ أهذا ما كنت تشعر به؟!

نعم.. يحق لك ألا تنام الليل من أجله..

ولكن... من أنا حتى أدمع؟..

وكأن الدنيا غابت من حولي، وكأن الناس ذهبوا وتركوني وحدي، فنظرتُ إلى الأرض عند قدمي حيث سقطتْ دمعتي، والتفتُّ بجسدي مرةً أخرى وأعطيتُ ظهري للناس، وجلستُ مكان دموعي دون أن أنطق بحرف، وإذا بيدٍّ الشيخ تمسح على كتفي، وهو يقول: "أحسنت"، فزادني بكاءً.. وما شعرت بعد هذا إلا والناس تكبِّر لصلاة العيد.

جامع أنس بن مالك.. وفي المكان نفسه الذي التقينا فيه بالشيخ عبد العزيز منذ عشرة أيام، كان الشيخ يودعنا، لكن الحال غير الحال.

هنا، سألت الشيخ كيف أني أحسنت وأنا لم أقل حرفًا، فسألني هو عن سبب عدم قولي أي شيء، فقلت له: "تذكرت كلماتك: لا تخن الأمانة ولو بلحسة عسل، فخشيت أن أخون الأمانة في كلامي ولو بحرف". فابتسم الشيخ وقال:

- ولهذا قلتُ لك أحسنت. يا بني، الصمت أحيانًا يكون كالسهام؛ تصيب ما لا تصبه كلمات لا تخرج من قلوب قائليها.

- يا شيخ... لست أنا من يعظ الناس.

- يا بني، إن صمتك وعظني.

....

وتنتهي الأيام العشرة، إلا أن معانيها لا تنتهي، وحلاوتها لا تجف، وقصص كثيرة ما زالت في قلبي.

تنتهي الأيام العشرة، ولم أقابل الشيخ بعدها، ولكن الشيخ عبد العزيز قد ترك في صحراء قلبي القاحلة واديًا أخضرَ مثمرًا، كلما أضناني جور الليالي خلعتُ عني همومي ونزلتُ في هذا الوادي أستريح من عناء الدنيا تحت ظلال ذكرياته، حتى تهدأ جوارحي.

نعم هذا الوادي محفور في قلبي... محفور بأول قطرة دمع..

هذا الوادي هو وادي الشيخ عبد العزيز... الذي علَّمني كيف أبكي..

• • • • •

§الجزء السادس : أحلام الشباب

الحبُّ أحلام الشباب هنيئة   فما أحلى الأيام والأحلام

هذا البيت للشاعر علي الجارم، وقد قرأتُه في إجازة الصيف بعد امتحانات السنة الثانية الثانوية، ومنذ أن قرأته وأنا أتخيل أحلام الشباب، وأرسم لها في خيالي ملامحَ وصورًا. وبالطبع، كان الحب هو إطار كل هذه الصور، بل هو الخلفية التي رسمتُ عليها كل هذه الأحلام. ظلَّ هذا البيت للأستاذ علي الجارم عالقًا بفكري، ولم يفارق خيالي وأنا أنتظر اللحظة التي يكون فيها هذا البيت حقيقةً لا شعرًا.

تمضي سنوات الجامعة، وكنت أظن أنني قد اقتربت من بيت الشعر هذا. ثم ظهرت نتيجة البكالوريوس وقد حصلتُ على التقدير الذي كنت أتمناه، فأخرجت هذا البيت من سجون أفكاري، وانطلقتْ الأحلام منه تتراقص أمام عيني، وتفجَّر ماردٌ بداخلي يكسر قيود سجنه، وينطلق يريد أن يحطِّم الدنيا، وأن يقبض عليها بيديه، ويمتلكها في قلبه. لقد حصلت على التقدير النهائي، أمامي التعيين معيدًا بالجامعة، ثم دخول الخدمة العسكرية، وسوف أكون عسكريًا لأنني معيد بالجامعة؛ وبالتالي ستكون مدة الخدمة

العسكرية سنة واحدة، ثم أحلام الشباب والحب... نعم... لا يفصلني عن الحب إلا شهور قليلة، فينطلق المارد الذي بداخلي إلى الحب: أحلام الشباب هنيئة، فما أحلى الأيام والأحلام.

....

أسابيع قليلة حتى راحت هذه الأحلام تتحطم حلمًا تلو الآخر؛ فلم يأتى دوري للتعيين معيدًا بالكلية، وبالتالي سألتحق بالخدمة العسكرية برتبة ضابط، وبالطبع ستكون مدة الخدمة العسكرية ثلاث سنوات، بعدها نبدأ في البحث عن وظيفة.

ذهبتُ إلى شاطئ النيل ليلاً أمام مستشفى العجوزة، حيث يوجد سُلّم حجريّ قديم يأخذني إلى الأسفل، فأجلس مباشرةً على حافة النهر. قديمًا كان هنا مركب صغير نستأجره للعبور إلى الضفة الأخرى من النهر، وبعد بناء كوبري أكتوبر، ذهب المركب وبقي السلم الحجري.

جلستُ على الأرض وأنا أضمُّ قدمي إلى صدري، وأضع ذراعي فوق ركبتي، وأسند رأسي فوق يدي غارقًا ببصري في النيل... نظر إليَّ المارد الذي بداخلي غاضبًا، وأنا أتوسل إليه أن ينتظر ثلاث سنوات أخرى، ولكنه راح يصرخ بي:

- أنا لن أعود ثانيةً إلى سجنك الضيق؛ فأنا ما عدتُ أحتمل ظُلمة هذا السجن. إمَّا أن أنطلق الآن وإمَّا أن ترميني في جوف هذا النيل وتتركني حتى أغرق في قاعه.

رحتُ أنظر إلى مياه النيل التي تجري أمامي ببطء وهدوء، وحسدتُها على ما هي فيه؛ فبرغم بطئها إلا أنها تتحرك... أخذتُ قليلاً منها في كفِّ يدي، وقلتُ لها:

- لقد أتيتِ من أعماق أعماق هذا الوادي، وسوف تمضين هناك إلى رحاب البحر الواسع.. أما أنا فجالسٌ هنا كما أنا، سنوات تطوي سنوات وأنا لا أتحرك ولا أتغير. آه لو كنتُ قطرات ماء أنطلق في ربوع هذا الوادي، وفي كل يوم شيء جديد.

ثم نظرتُ إلى ماردي وتوسلت إليه أن يرأف بي، فأنا لا أملك من الأمر شيئًا... وإذ به يسألني عن أحلام الشباب؛ فقلت له:

- تؤجل ثلاث سنوات أخرى، أو تؤجل إلى ما شاء الله لها أن تؤجل.

راح يهزني وهو يصرخ بي قائلاً:

- وماذا عن الحب؟

فقلت له يائسًا:

- يُلغى الحب من أحلام الشباب.

فقال ساخرًا مني:

- وهل للشباب أحلام من دون حب؟!

فدفعته بعيدًا عني ووضعت رأسي بين ذراعي، وأنا أقول له:

- إذن يُلغى الشباب من أيام عمري.

لحظات صمتٍ تمر... لا أسمع فيها إلا همس مياه النيل لشُطآنه، والظلام قد ملأ المكان... وفجأة تذكرت شيئًا.. فرفعت رأسي متهللاً، وقد برقتْ عيناي ولمعتْ كتلك النجوم التي تلمع في السماء؛ فقد تذكرتُ شيخي الجليل، الشيخ عبد العزيز، إذ علمني شيئًا لا أعرف كيف نسيته... نعم... سورة يس... لقد علمنى أن "يس لما قُرئت له"؛ فعاد الأمل يراودني مرة أخرى، ورأيت ماردي يبتسم مهللاً:

- فلنقرأها ولنطلب من الله ما نريد حتى نقترب من أحلام الشباب.

وهنا عقدتُ العزم على قراءة سورة يس بنية أن تكون الخدمة العسكرية لمدة سنة، وأن التحق بالجيش كعسكري.

....

في عصر اليوم التالي، كنتُ جالسًا بمفردي في منزلنا. توضأتُ، وأخذت المصحف لأقرأ سورة يس. وما إن فتحت المصحف على صفحة ٤٤٠ حيث بداية السورة، حتى جاءني إيمان عميق وإحساس لا شك فيه أن كل ما سأطلبه اليوم سوف يتحقق؛ حتى إن نفسي حدثتني أن أطلب إعفاءً نهائيًا من الجيش، ولكني استحييت من الله واستكثرت هذا على نفسي. قررت أن يكون مطلبي أن أدخل الجيش عسكريًا لا ضابطًا.

رحت أقرأ الآيات سريعًا، وأطوي السطور بعد السطور، فأنا واثق أن طلبي سيتحقق بمجرد الانتهاء من السورة. تلوت الصفحة تلو

الأخرى، وأنا أحبس أنفاسي، وماردي واقف بجواري ينظر إلى السماء ويتمتم بكلمات سريعة، وما أن وصلتُ إلى منتصف السورة حتى سمعت طرقًا على باب منزلنا... لن أفتح! لن يؤخرني شيء عن إنهاء السورة. ولكن الطرق كان يزداد، ومع إصرار الطارق أغلقتُ المصحف، وذهبتُ أفتح الباب.

يا إلهي.. سبحانك يا الله... أنا ما توقعت أن تكون الإجابة بهذه السرعة؛ فطارق الباب كان أحد معارفنا جاء يحدثني عن أمر تجنيدي، وبادرني بالسؤال:

- إنت إمتى هاتروح التجنيد؟
- بعد شهر تقريبًا.
- وناوي تعمل إيه؟
- ولا حاجة. يعني هاعمل إيه؟ هاروح وزي ما تيجي.
- خريجي هندسة لازم يدخلوا ضباط.. دي مافيهاش هزار.
- ضابط... ضابط... إن شاء الله حتى لواء... ما فيش حاجة في إيدي أعملها.
- اسمع، أنا أعرف صول في الجيش ممكن بسهولة يدخلك عسكري، هو مش بياخد فلوس، بس لازم نجيب له هدية قيمة؛ تلفزيون ملون، فيديو.. حاجه زي كده.. إيه رأيك؟
- وده أكيد يقدر يدّخلني عسكري؟
- أكيد طبعًا.. ده مضمون.

- إنت متأكد؟ كل اللي طالبه تلفزيون أو فيديو بس؟
- أنا متأكد.... دي مش أول مرة أتعامل معاه.
- أنا ممكن خلال شهر أدبّر المبلغ، بس أنا قلقان من الموضوع ده.
- الموضوع سهل قوي.... ما تحملش إنت هم... كل اللي عليك تعمله قبل ما تروح التجنيد بيومين إنك تكلمني ونروح نقابله.
- دي تبقى خدمة العمر.
- ولا يهمك.. أسيبك أنا بقى... مع السلامة.
- مع السلامة.

ذهب الرجل، وأغلقتُ باب منزلنا خلفه، ثم ذهبتُ لأرقص في أرجاء المنزل! بل إنني رحت أقبِّل الحوائط، وتذكرت مجنون ليلى وهو يُقبِّل ذا الجدار وذا الجدار، ثم أسرعتُ إلى غرفتي لأكمل سورة يس، وأنا أقول لنفسي:

- ده إحنا لسه في نصف السورة وبقيت عسكري! طب مع آخر السورة إيه اللي ها يحصل؟ أكيد إعفاء إن شاء الله!

فتحتُ المصحف، ووقعت عيني على سوره يس ثانية. وهنا، تملكني شعور غريب... شيء بداخلي راح يؤلمني.. كنت أتجاهله في بداية الأمر، وألقيته وراء ظهري حتى لا يفسد عليَّ فرحتي؛ فقليلاً ما كنتُ أفرح. ولكن ما إن فتحت المصحف حتى وقف هذا الشيء بيني وبين الآيات. هنا، تذكرت مرة أخرى شيخي عبد العزيز ولحسة العسل، ثم سمعت صوته في أذني، وهو يقول لي:

- يا بني يُرسل الله لنا إشارات ورسائل يغفل عنها الغافل، فانتبه يا بني، وافهم واتعظ... فأقدار الله ليست صدفة.

أغلقتُ المصحف والخوف قد تملَّك كل حواسي. صمتُ قليلاً، ثم أخذت أفكّر فيما حدث. ثم سألت نفسي: كيف سيحقق الله لي ما أريده ببركة سورة يس، ولكن عن طريق حرام بالرشوة؟ إن في الأمر شيئًا. رحت أسأل نفسي في حيرة وقلق: ماذا الذي يريد الله مني أن أفهمه؟ ومن هذا الذي جاء؟ أهو بشير أم نذير أم جاء صدفة؟ إن دخولي الجيش كعسكري عن طريق الرشوة سيكون شرًّا لي، وليس خيرًا؛ لأنه حرام. ثم كيف يكون شرًّا وأنا كُلي يقين بأن الله سيحقق لي ما أطلبه بدعاء سورة يس؟ يا إلهي! لقد بدأت أفهم... وكأن الرسالة تقول إن دخولي الجيش كعسكري أمر هين على الله تحقيقه، ولكنه ليس خيرًا لي. وهنا تنبهت، وسألت نفسي: لماذا أسلك طريقًا ملتويًا للوصول إلى هدفي؟ إن هدفي هو الخير، فليكن دعاء سورة يس أن يقدِّم لي الله ما فيه الخير في التجنيد.

هدأتْ الآن كل جوارحي، واطمأنت ثكناتي، وقررت أن لا أتصل بهذا الصول. لن أرشي أحدًا، ولن أطلب منه شيئًا بالحرام. وقررت أيضًا أن أبدأ قراءة سورة يس من أولها بهدوء وطمأنينة، ولكن بنية جديدة: أن يقدم الله لي ما فيه الخير، أيًّا كان.

هكذا تكون يس لِمَا قُرِئت له.. بارك الله في شيخي عبد العزيز.

• • • • •

§ الجزء السابع : رسائل

ذهبتُ إلى التجنيد، وكل ما أحمله معي هو سورة يس ودعاؤها، وجاء ترشيحي ضابطًا لأقضي ثلاث سنوات في الجيش، لكني لم أبالِ، فالخير فيما اختاره الله لي.. ذهبت إلى كلية الضباط الاحتياط بفايد، دفعة رقم ٦٠. ربما لا يصدِّق القارئ لو قلتُ إني أحمل بين جنبات قلبي أجمل الذكريات عن هذه الأيام، فيكفيني فخرًا أن أحد قادتي في هذه الكلية كان من أبطال حرب أكتوبر، التي كان قد مضى عليها في ذلك اليوم أقل من عشر سنوات. كان البطل العميد يسري عمارة، الذي أسر اللواء الصهيوني عسَّاف ياجوري.. كلنا كنا نعرف هذه القصة؛ إذ قرأناها في الجرائد وشاهدناها في التلفزيون عشرات المرات، ولكن ما إن دخل علينا هذا البطل لأول مرة حتى تهللت وجوهنا، وانتابنا شيء من الفخر والزهو؛ فكلنا نعرفه من صوره التي ملأت الجرائد، وطلبنا منه أن يحكي لنا بالتفصيل ما حدث. ولمَّا قال لنا إنكم تعرفون القصة كلها، قلنا له إننا نريد أن نسمعها منه هو... بدأ بوصف قصته مع عساف ياجوري، وأنا أنظر إليه بكل فخر، وأفتح أذنيَّ وعينيَّ على مصراعيهما؛ فالكلمات تدخل أذني، وصورته تملأ عيني، لتتشبَّ

حرب الكرامة في أذهاننا.. وما إن أنهى قصته حتى كنا كلنا نتمنى الموت على أرض سيناء، وأيقنت أن لنا على حدود هذا الوطن رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

أذكر فايد وليالي شتائها القارص، ونحن نلعب كوتشينة (أستماشن) أنا وزكريا وأحمد وشمس. بعد أن ينام المعسكر كنا نوقظ بعضنا بعضًا ونجلس على سريري، وكل منا يثبت شمعة داخل خوذته، ونلفُّ السرير بالبطاطين حتى لا يخرج ضوء الشمع بعيدًا وينكشف أمرنا!.. ثم اكتشفنا خطورة وجود الشمع مع البطاطين، فأحضرنا مع أول إجازة كشافات كهربائية صغيرة، وكانت تمضي بنا الساعات ونحن نلعب ونضحك حتى يُغمى علينا، فننام لا من التعب ولا من إرهاق الطوابير طوال اليوم، ولكن من رائحة أقدامنا التي ما كنا نراها لأيام!. كنت أنظر إلى أصابع قدميّ وأنا أقول لها: "وحشاني بجد، ما فرقنيش عنك إلا البيادة"!.. وكثيرًا ما كنا نُعاقب على أخطاء فعلناها، ولكن العقاب كان أحب شيء لدينا؛ وهو أن نبقى في المعسكر أيام الخميس والجمعة، فكنا نتسلل ليلاً من أسوار المعسكر، ونمشي في الصحراء ساعات حتى نصل إلى مدينة فايد، فنجلس على مقاهيها، نأكل ونشرب الشاي، ونتفرج على أحدث الأفلام بعشرة قروش، ثم نعود إلى المعسكر قبل أن يصبح الصباح.

وذات يوم، رأيت ماردي يضحك بملء فمه وقلبه، فقلت له:
- أليست هذه أحلام الشباب الهنيئة؟ ليست كل الأحلام حُبًّا.

فتوقف عن الضحك، وراح ينظر في سماء بعيدة لا أراها، وقال لي:

- دعنى اليوم أضحك؛ فقد نسيتُ الحب هناك على إحدى مقاهي تلك المدينة النائية، أو لعله احترق بلهيب شمعتك المشتعلة داخل خوذتك في إحدى ليالي الشتاء القارصة، أو ربما قفز هاربًا ليلاً من أسوار قلبي المهجورة، كما تهرب أنت من فوق أسوار معسكرك. حتى إنني اليوم أنسى، وأنت من ذكرتني، فدعني اليوم أحيا، فصحبة اليوم تسعدني.

ثم تركني ومضى، وراح يكمل ضحكه مع أصدقائي، فذهبت أنظر في أعينهم، فوجدتها مملوءة الأحلام والآلام نفسها التي تملأ عيني، ولكننا اليوم نضحك.

كان معنا شابٌّ طيب من المحلة، وقد انهارت أحلامه بجوار أحلامي، فراح يعدُّ الأيام عَدًا يوم بعد يوم، وفي كل صباح، ينقص عدد الأيام الباقية لنا في الجيش يومًا. وفي يوم من الأيام، حدثني ذلك الشاب عن حُبٍّ تركه في بلدته، حدثني عن قلب يحلم، حدثني عن جرح أعرفه، حدثني عن جرح ينزف في قلبي.. فقلت له:

- رفقًا، ما هكذا تمر الأيام.. عشها كما تأتي. نعم، ليست كلها خيرًا تمنيناه، ولكنها أيضًا ليست كلها شرًّا كرهناه.

تنتهي أيام فايد، ويرحل جميع الرفاق عن الكلية إلا أنا؛ لأنني رسبت في بعض المواد العسكرية، ولابد من قضاء أسبوعين آخرين لإعادة الامتحان.. "ماشي، مش عيب!".

....

تمَّ توزيعي، وكان مقر قيادتي في مدينة نصر، وكنت أذهب إلى بيتي كل يوم، بل وكنت أعمل أيضًا في الفترة المسائية بمكتب د.إبراهيم جعفر. وما زلتُ أذكر قائدي اللواء محمد عبد المنعم، إذ كان بحق رجلاً طيبًا يحبني، وكنت أحبه كثيرًا.

تمضي الشهور، وحالي لا يتغير وأنا مستسلم لأقداري، لكني ما نسيتُ أني قرأت يومًا سورة يس.

ذات مساءٍ، كنت جالسًا مع صديقى القديم مكين، وكنا نعمل سويًا ليلاً في مكتب د. جعفر. دخل علينا آنذاك د. أحمد الكفراوي رحمه الله، وراح يبتسم لي وهو يقول:

- مبروك يا واد يا هشام. عيَّناك عندنا معيد في كلية الفنون الجميلة في الزمالك.
- يا دكتور إنت قلت لي كده المرة اللي فاتت من ٩ شهور، وقدَّمت كل أوراقي في فنون جميلة وما فيش حاجة حصلت.
- المرة اللي فاتت خدنا أول خمسة من المتقدمين في الإعلان، وكلهم كانوا امتياز من عين شمس. وبعديها بشهرين ٦ معيدين

سافروا من عندنا مرة واحدة تبع مِنح السلام، ومحتاجين غيرهم. وقلنا في القسم بدل ما نعمل إعلان جديد ناخد من اللي كانوا متقدمين في الإعلان القديم، وإنت اسمك منهم.

- يعني المرة دي أكيد يا دكتور؟
- يا بنى أنا مضيت على جواب تعيينك، وهايجيلك في البريد كمان كام يوم.
- طب والجيش يا دكتور؟ أنا دخلت ضابط.
- أول ما تقدّم جواب التعيين في الوحدة بتاعتك هايخرجوك من الجيش مع دفعتك اللي دخلوا عساكر. يعني ها تكمل سنة وتخرج. إنت حظك حلو؛ دخلت الجيش ضابط باحترامك ومن غير بهدلة العساكر، وها تقعد في الجيش نفس مدة العساكر.

تركنا د.الكفراوي ومضى.. فنظر إليَّ مكين وهو يقول لي كلمات دمعت لها عيناي؛ فهو يعرفني أكثر مما أعرف نفسى، بل إنه يعرف عني أسرارًا أخفيها عن نفسي.

أخذتُ جواب التعين وأعطيته للواء محمد عبد المنعم، فتهلل وجه الرجل، ورأيت فرحة صادقة في عينيه، ثم قام عن كرسيه واحتضنني، وهو يقول لي:

- والله أنا فرحت كأنك ابني تمام.
- شكرًا يا أفندم... أنا فعلاً محظوظ لأني اشتغلت مع حضرتك.

- إنت تستاهل كل خير.
- طيب أنا مش عارف المفروض أعمل إيه دلوقت.
- إنت فاضلك قد إيه وفترة التجنيد الأساسية تنتهي؟
- فاضل لي بالضبط ٣ أسابيع.
- خلاص. التلات أسابيع دول هدية مني بمناسبة تعيينك معيد. خدهم إجازة، بس قدِّم جواب التعيين في الوحدة، وأنا هاقوم باللازم. يعني إنت مع السلامة من غير مطرود.

شكرته وحضنته وقبلته في كتفه؛ فهذا الرجل جعلني أشعر حقًا بالدفء والأمان في أثناء فترة خدمتي في الجيش معه، وكانت حوالي السنة.

....

خرجتُ من وحدتي سعيدًا فرحًا، وركبت الحافلة العامة عائدًا إلى منزلي. تمنيت لو أستطيع أن أقوم وأصيح وأحتضن كل من في الحافلة! وكنت جالسًا أنظر من النافذة حين استقلت الحافلة سيدة في الخمسينات من عمرها، فقمت وأجلستها مكاني وأنا أبتسم لها، وعيناي كلها فرحة، فجلستْ السيدة ثم نظرت في عيني وهي تبتسم. شكرتني، ثم لمعت عيناها، وفتحت حقيبتها الصغيرة لتخرج منها منديلاً معطرًا مغلقًا، كُتِب على غلافه "مصر للطيران"، ومدَّت يدها به إليَّ لتعطيني إياه، وهي تقول وبسمتها ما زالت تلمع في عينيها:

ـ أنا كنت في الحج، ودي آخر حاجه معايا من رحلة الحج. هي حاجة بسيطة لكن أنا بعزها قوي.... خدها هدية مني أنا زي والدتك.

أستحييتُ أن أمدَّ يدي وآخذ المنديل منها، فإذ بالمارد الذي بداخلي يمد يده برفق، وكأنه ملاك وديع، ويأخذ منها المنديل، بل ويبتسم لها ويشكرها، ثم ينظر إليَّ معاتبًا، ويهمس لي:

ـ ما زلتَ لا تفهم! إنك أحمق! إنها هدية.. إنها إشارات ورسائل.

وبقيتُ محتفظا بهذا المنديل في دُرج مكتبي حتى بعد زواجي، وبعد أن عشت أحلام الشباب الهنيئة، وقد كانت كما قال علي الجارم: ما أحلى الأيام والأحلام. وكلما فتحتُ درج مكتبي ووقعتْ عيني على هذا المنديل، كنت أضمه بكل جوارحي، وأنا أهمس لنفسي: "حقًا يس لما قرئت له".

وما إن بدأت الدنيا تُرخي حبالها حول عنقي حتى ضعف الإيمان. وكلما زادت الدنيا في عطائها ازددتُ بعدًا عن سورة يس، حتى ضاع هذا المنديل مني. ضاع بعد سنوات وسنوات طويلة احتفظت به هنا في درج مكتبي. لا أدري أين ولا أدري كيف، ولكنه ضاع في زحام الدنيا وغفلة الأيام، ليكون إشارة ثانية ورسالة أخرى، ولكنني ما زلت أحمق لا أفهم الإشارات ولا أتعظ من الرسائل.

اللهم لا تضلنا بعد إذ هديتنا..

اللهم ما فتنتنا الدنيا بشرها ولكن فتنتنا بخيرها فاغفر لنا ضعفنا..

اللهم اهدنا كما ترزقنا بلا حول منا ولا قوة..

اللهم آمين.

• • • • •

§ الجزء الأخير : يا ولدي هذا ما علمني شيخي

تخرَّج ابني الأكبر من الجامعة، فأردتُ أن أنصحه بشيء، فرجعت بذاكرتي إلى تلك الليالي العشر مع شيخي عبد العزيز، محاولاً أن أجمع معانيها في سطور وأعطيها لابني، فقلت له:

- يا بُني، لقد أنهيت دراستك، فدعني أهمس في أُذنك بكلمات قبل أن أترك جناحيك لتطير؛ فأنت طائر جديد في سماء لا تعرفها، وأنا قد علمتني الأيام شيئًا منها:

- لا تستعجل الرزق فإنه آتيك، واعلم أن أفضل الرزق ما كان كافيك. وتذكر قول رسول الله "بنيَّاتكم تُرزقون" فكن جميل النيّة تكن جميل الرزق.

- لا تصارع الأيام فتضنيك لياليها، واعلم أن الأيام تأتي بما قضى الله لك فيها. فكن مع الأيام صديقها بطيب خاطر ورضى نفس.

- لا تبتئس إن رأيت من هو أقل منك ذكاء وحيلة وأكثرَ منك مالاً وسِعة؛ فهناك من هو أكثر منك ذكاء وحيلة وأقل منك مالاً وسِعة.

ـ كن متواضعًا لمن له حاجة عندك، وكن عزيزًا مع من لك حاجة عنده. أمَا علمتَ أن رسولنا قال "اطلبوا الحاجات بعزة نفس فإن بيد الله قضاؤها"؟ وأمَّا من جاءك يطلب حاجته فإن الله يا بني قاضيها له، إنما أرسله إليك ليجزيك عنه خيرًا، فلا تتعالَ على نعمة الله.

ـ كن حلو الحديث طيب الخُلق، ولا تجرح أحدًا حتى وإن كنت مازحًا؛ لكي لا ينفض الكرام من حولك وأنت لا تدري. واعلم أن الكريم قد يتألم ولا يبوح، وإن ذهب قد لا يعود. ولا تشكُ أخلاق الناس للأيام، وإن كثر حولك اللئام فاعلم أن العيب فيك.

ـ يا بُني، افعل الخير بين الناس ما استطعتَ بلا مقابل أو ثمن؛ فوالله مهما طال الزمان ليأتينَّ الله إليك برجل، ولو من أقاصي الأرض، ليردَّ الخير إليك أو لأهلك من بعدك.

ـ يا بُني، كن علي يقين بأن الناس تُحبك بقدر حبك لها، ما لم يكن حبك عن هوى في القلب أو غرض في النفس. ومهما كانت العيوب، فبداخل كل إنسان شيء جميل، أحببه من أجله.

ـ يا بُني، إن مالك ليس مالك، بل مال زوجك وأولادك؛ فلولاهم ما أعطاك الله إياه، فلا تنفقه إلا فيما يرضي الله ثم يرضيهم.

ـ يا بُني، لا يضنينَّك أولادك؛ فأنت لا تملك من أمرهم شيئًا إلا اثنين: إطعامهم حلالاً والدعاء لهم. وفوِّضْ أمرهم دائمًا إلى الله،

فلن تكون أرحم من الله بهم. واختر لهم أمًا صالحة كما كانت أمك لك.

- يا بُني، ليس بعد الحفاظ علي الصلاة نُصح، فإن كنت تاركها لن يفيدك نُصحي شيئًا. وبعد العبادات، هل أدلك على طريق جميل للجنة؟ أكرم ضيفك وأحسن إلى جارك، وقل خيرًا أو لتصمت، وحسن إسلامك بتركك ما لا يعنيك. هكذا قال رسول الله عليه الصلاة والسلام. ولا تحمل في قلبك يومًا ذرة حقد أو حسد أو غضب لأحد.

- يا بُني، لو ضاقت بك السبل يومًا فعليك بسورة "يس" فجرًا؛ فإن "يس" لِمَا قرئت له. يا بني، أنت لا تدري ماذا فعلت بكم يس وأنتم صغار نيام.

- واعلم أنت وإخوتك أن أكثركم قُربًا من نفسي أكثركم دعاء لي. أما أكثركم حُبًّا في قلبي أكثركم إحسانًا بوالدته.

- وأخيرًا، قد أكون لست كما نصحتُ لك، ولكن هذا ما تمنيتُ أن أكون. فاسمع عني لتكون خيرًا مني إن كان لي خير.

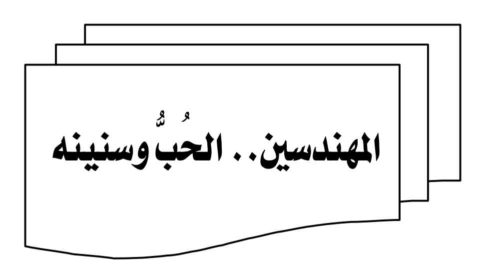
- يا بُني، هذا ماعلمني إياه شيخي، فخذ منه ما استطعت، إن استطعت.

أما وقد علمتك الطيران، فاسبح في سماء الله الواسعة، واعلم أن قلبي سيبقي مشتاقًا إليك، فإن اشتقتَ إليَّ ستجدني دائمًا في انتظارك.

....

هكذا تمَّت قصة وادي الشيخ عبد العزيز... بارك الله فيه إن كان حيًّا، ورحمه الله وجزاه عني خيرًا إن كان فارق الدنيا.

• • • • •



حدَّثني صديقٌ (وهو مهندس أيضًا) عن حوارٍ دار بينه وبين زوجته... ولكن قبل أن أحكي لكم هذا الحوار لابد من شرح بعض النقاط حتى لا نظلمه كما ظلمته زوجته...

مشكلة معظم المهندسين أنهم يتعاملون مع الكلمات كما يتعاملون مع الأرقام، ويستخدمون العِبارات وكأنها منحنيات تتقاطع عند المعاني المطلوبة.. والجُمل عندهم خطوط مستقيمة تخرج منها الأفكار وكأنها معادلات متساوية الأطراف.. فكلماتهم تبحث دائمًا عن أقصر الطرق بين نقطتين بصرف النظر عن المشاعر، وينصبُّ اهتمامهم على الناتج النهائي؛ بغض النظر عن الأحاسيس... والحياة ليست هكذا.

فالرقم له قيمة واحدة يعرفها الجميع، أمَّا الكلمة فلها معانٍ كثيرة، وفيها أحاسيس مختلفة؛ مترادفةٌ أحيانًا ومتضادة أحيانًا أخرى... والمعادلة المتساوية الأطراف لا يختلف على قيمتها الناس، أمَّا العبارات فشيءٌ مختلف، فقد تقول جُملة ما بمشاعر فيَّاضة

ويستقبلها الناس بفتورٍ؛ فتُحبَط.. وقد تقولها لا تُلقي لها بالاً فينبهر الناس بها؛ فتفرح.. وقد تخرج منك كلمة فيضحك لها سامعها ويبكي منها آخر... لست أنا فقط من قال هذا، فلقد قال د. ميلاد حنا كلامًا مشابهًا في كتابه "الأعمدة السبعة للشخصية المصرية"... وكما يعلم الجميع د. ميلاد أيضًا مهندس.

لقد فضَّلتُ أن أبدأ بهذه المقدمة حتى تفهموا هذا الحوار الذي دار بين صديقي وزوجته، فقد جاءته ذات يوم تقول له :

- إنت ليه لما بتدخل البيت مش بتقول بحبِك؟!

- إيه؟!

- ليه مش بتقول بحبِك؟

- ليه؟

- يعني إيه ليه؟... هو إنت مش بتحبني!

- آه طبعًا بحبِك... أنا قصدي إيه السبب يعني؟

- يعني لازم يكون فيه سبب علشان تقولي بحبك؟

- لا مش قصدي... أنا قصدي في حاجة حصلت؟

- تفتكر إيه اللي ممكن يحصل وبناءً عليه تقولي بحبك؟

- مش القصد... يعني أنا أدخل البيت وأقول بحبك كده لوحدي؟!

- وإيه العيب في كده؟... مش إنت بتحبني؟

- آه طبعا بحبك وإنتي عارفة إني بحبك.

- حتى لو كنت عارفه.. إنت برضه لازم تقولها... طب ما أنت بتحب مامتك وأكيد هي عارفة إنك بتحبها، لكن إنت بتقول لها بحبك.
- آه بأقول لما تكون عيانة.
- يا ساتر!!!.. يعني لازم أعيا علشان تقولي بحبك؟!
- لا طبعًا... سلامتك ألف سلامة.. أنا قصدي لكل فعل رد فعل... يعني يحصل حدث معين، أو في ظرف ما، والموقف يستوجب إني أقول بحبك تلاقيني أقول بحبك... فاهمة قصدي؟... يعني كلمة بحبك تتقال نتيجة تفاعلات معينة أو يوجد طرف في معادلة يحتاج الطرف التاني منها كلمة بحبك.
- يعني علشان تقولي بحبك عايز تعمل بحث علمي فيها !!!.. دي مشاعر مش مسألة رياضة.
- لا طبعًا مش رياضة.. أنا بس عايز أوضّح لكِ إنى مش عشان ما بقولش بحبك يبقى أنا مش بحبك... لا طبعا بحبك وبحبك جدًا وعلشان أبسط لكِ وجهة نظري... مش ٥+٢=٧ ؟
- سبعة إيه وتمانية إيه، هي حصة حساب؟!
- بس اسمعيني للأخر...
- ماشي.. بتساوي ٧ إن شاء الله.
- يعني لو حد سألني ٥+٢ أنا أقدر أقول ٧ بقلب جامد.. أو لو كنت في موقف فيه ٥+٢ بدون تردد هأقول ٧.. لكن ماينفعش أكون

ماشي في الشارع مثلاً وأقول ٧ كده لوحدي.. أو أكون راكب العربية وبعدين أطلّع راسي من الشباك وأقول سبعة كده في الهوا.

- إيه علاقة ده بسؤالي إنك تقولي بحبك؟..

- ماهي نفس العلاقة... سؤالك: إنت ليه مش بتقول بحبك لما بتدخل البيت؟ كأنك بتسأليني: أنت ليه مش بتقول ٧ لما بتدخل البيت ؟... تخيلي أنا أدخل البيت وبصوت عالي أقول سبعة... ده كلام؟!

- يعني حبك ده بيجي و يروح حسب الموقف.. حسب الحالة.. حسب ٥+٢

- لا طبعًا الحب موجود ودايمًا موجود..والدليل على كده لو أنا ماقلتش ٧ ده مش معناه إن ٥+٢ لا تساوي ٧... بمعنى آخر زي ما ٥+٢ حقيقة ثابتة بتساوي ٧ من غير ما حد يقول ٧ وهاتفضل طول عمرها تساوى سبعة ولحد يوم القيامة بتساوي سبعة... أنا برده حبي لكِ حقيقة ثابتة من غير ما أقول بحبك ولحد يوم القيامة هافضل أحبك إن شاء الله.

- يعني إنت عايز تفهمني إن كلمة بحبك زي رقم ٧... ما فيش فرق بينهم؟

- لا طبعًا.. فيه فرق في المعنى لكن مفيش فرق في الحيثيات.. يعني كل منهما تحتاج ظروف محيطة تؤدي إلى أسباب معينة وبالتالي نقدر نقولهم.

- بس إحنا اتنين كائنات حية عايشين مع بعض في بيت واحد، يعني لازم يكون في ما بينا أحاسيس ومشاعر بدون أسباب ولا حيثيات.. يعني لازم أحس بحبك... إحنا مش مسألتين حساب في كتاب رياضة مع بعض.

- يا حبيبتي أنا حُبي ليكي مرفوع لأس ٢٥.. حُبي ليكي رقم مقسوم على صفر يعني قيمته بمالانهاية.. إنتي بالنسبة ليا القاسم المشترك الأعظم.. بس إنتي اللي مش قادرة تفهمي لوغاريتمات حُبي... وبعدين الأرقام كلها أحاسيس برضه.. يعني السبعة مثلاً جمعت بين رقمين ووفّقت بين عددين هما الخمسة والاتنين.

صمتت زوجتي قليلاً ثم هزَّت رأسها بالموافقة.. ظننت في بادىء الأمر إنني أقنعتها بأسلوب هندسي لايدع مجال للشك ولا يحتمل الريبة فلمعت عيناي بنشوة الانتصار ثم أخذتُ نفسًا عميقًا بكل زهو وافتخار وقلت لها:

- إعملي لنا بقى كوبايتين شاي عشان نحبس على الكلام الشديد ده.

ذهبتْ ولم تعد بالشاي، فالتمستُ لها عذرًا وقلت لنفسي:

- يمكن ما عندناش بن.

في اليوم التالي عدتُ إلى البيت فلم أجد طعامًا؛ فقلت لعلها مجهدة، فلم أتكلم... وفي اليوم الثاني نفس الحال، واليوم الثالث شرحه، وأنا أتلمس لها الأعذار ولا أتكلم... وعندما عدتُ ووجدتُ نفس الحال في اليوم الرابع قلتُ لها :

- إيه؟... فيه إيه؟... إحنا بقى لنا أسبوع من غير أكل... هانقضي بقية عمرنا جبنة و بيض ولا إيه؟

- إيه بس المشكلة يا حبيبي؟

- إنتي ليه مش بتطبخي؟.... ده ما فيش أي أكل في البيت...

- لا... مش معنى إن ما فيش أكل في البيت إني أنا مابطبخش

- يعني إيه؟... مش فاهم.

- أنا ها اشرحلك وجهة نظري وأبسّط لك فكرتي.. مش ٢٧ لو قسمناها على ٣ يكون الناتج ٩... والستة لو حطينا عليها ٣ تساوي ٩... والأغرب من كده وكده ان السبعة لو جمعنا عليها ٢ برضه تساوي ٩...... يعني كل التسعات دي حوالينا وماليه علينا البيت يا حبيبي وتقولي ما فيش أكل في البيت.

- نعم؟!

- عشان مافيش أكل في البيت ده مش معناه إن ٢٧ على ٣ لا تساوي ٩.. لا طبعًا هي بتساوي ٩ وهاتفضل طول عمرها تساوي تسعة.. ولحد يوم القيامة هاتساوي تسعة..... أما بقى

بالنسبة لكوم الغسيل اللي في الحمام.. ده بقى في درس الكيمياء العضوية الأسبوع الجاي ياحبيبي لأن حبك مغرق قلبي ببوتاسيا الصوديوم وحنانك زي الكلور بيزيل كل بقع الهموم اللي على فساتين شجونى وقلبك ناصع البياض.

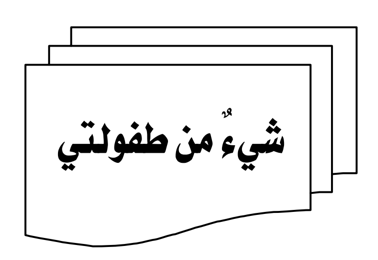
....

ما كان منه إلا أنه راح يطوف في البيت كله غرفة غرفة ، حائط حائط ، باب باب وهو يردِّد: بحبك... بحبك... بحبك ... بل إنه أخذ يخرج من باب البيت ويدخل مرات عديدة وهو يردِّد: بحبك بحبك بحبك........

....

صحيح ما حدش يقدر يغلب الستات... حتى المهندسين.
بس ده ما يمنعش إنه فعلاً بيحب زوجته؛ لكن بإسلوب هندسي.

• • • • •



كندا - نوفمبر ٢٠١٤

اليوم اكتشفتُ أنني ما زلتُ أحمل بين جنباتي شيئًا من طفولتي؛ الضرس الثاني في الفك الأيمن السفلي... هكذا قال طبيب الأسنان لي إن هذا الضرس لم يتبدل بعد.

ذهبتُ إلى البيت.. نظرتُ إلى هذا الضرس في المرآة وهمست له:

آه ما أجملك.. يا ليت القلب مثلك لم يتبدل بعد
يا ليت القلب مثلك لم تغيِّره الأيام والليالي
يا ليت القلب مثلك... ما زال قلب طفل.

• • • • •



أُنكل سليم

تزعجني كثيرًا هذه الكلمات التي نحاول التقرب بها إلى إخواننا المسيحيين فنقول: هم إخوة لنا؛ وكأنهم لم يكونوا كذلك وأصبحوا اليوم إخوة.. أو نقول: هم شركاء لنا في الوطن؛ وكأننا ما كنا ندري بهذا واكتشفنا اليوم شراكتهم.

لكن ما يقتلني قتلاً ويذبحني ذبحًا حين يُقال عنهم إنهم أقلية... فكيف أكون صاحب وطن وأكون أقلية، وأين لي أن أذهب لأكون أكثرية؟.

أنا هنا في كندا أقلية، وأتفهم أني أقلية، ولايزعجني أني أقلية.. فهذا اختياري، وحتى المصري المسيحي هو أيضًا في كندا أقلية، فمهما أعطوا لنا من حقوق، ومهما أدَّينا ما علينا من واجبات؛ ما زلنا أنا وهو نشعر بداخلنا بأننا أقلية، فلا ذكريات تجمعنا معهم، ولا حنين يربطنا بهم... نعم نحترمهم ويحترموننا وقد نحبهم ويحبوننا.. لكننا سنبقى أقلية.

الأهم من هذا لو أن مواطنًا كندي الأصل دخل الإسلام؛ فهو لن يشعر يومًا أنه أقلية، ولن يأتي إليه أحدٌ يواسيه بأنه ما زال شريكًا في الوطن كندا؛ لأنها بالفعل وطنه وبلده بل ودنياه كلها...
إذن الشعور بالاقلية شعور داخلي ليس له علاقة على أي دين أنت.

لأُقرِّب لكم وجهة نظري تعالوا نتخيل أن أحدًا خرج علينا في الإعلام وأخذ يخطب خطبة عصماء فحواها أن الإسكندرانية أقلية في مصر، لكن لهم كل الحقوق مثل باقي المصريين، ونحن نحترم حقوقهم، بل إن الإسكندرانية شركاء لنا في الوطن، وأنهم إخوة لنا.. الإسكندرانية لهم ما لنا وعليهم ما علينا.
بالله عليكم ما هو ردُّ فعل الإسكندرانية؟.. بل ما هو رد فعل الناس كلها ؟... بالطبع كلنا سنقول إن هذا الرجل مجنون.. مخبول... معتوه..
هذا تمامًا ما أقوله عندما أسمع هذه الكلمات تُقال عن المسيحيين لأنها كلمات يكسوها الحب والود والصفاء، ولكن يختبئ في ثناياها سمٌّ يقتل الحب بيننا... يقتله ببطء شديد.

لو استمر الإعلام لعشرات السنوات يردِّد هذه الكلمات عن الإسكندرانية، فبعد فترة سيشعر الإسكندرانية أنهم نسيجٌ غريبٌ في الثياب المصرية، وأن باقي المصريين تفضلوا عليهم بجعلهم إخوة لهم... وهذا والله ما لا نرضاه لمسيحيينا.

يا ليتنا نمتنع عن تكرار هذه الكلمات حتى لا نكون كمن يذهب إلى أخيه في بيت أبيه ويقول له: "إني أحبك مثل أخي" فهو يُظهر له الحب ولكن ينزع من بينهما ما هو أقوى من الحب.. ينزع الأخوة. إنهم ليسوا شركاء في الوطن.. إنهم ليسوا أقلية.. ببساطة شديدة هم نحن ونحن هم.

إن المسلمين والمسيحيين في مصر مثل لونين مختلطين ممتزجين في لوحة جميلة؛ وليكن الأحمر والأصفر؛ وقد امتزجا مع بعضهما في انسيابية وبساطة شديدة، وتشابكت الخطوط الحمراء والصفراء مع بعضها البعض؛ فلا تعرف حدودًا للأحمر، ولا ترى مكانًا للأصفر، ولا حتى تعرف نسبة أي لون للآخر، بل لا أحد يهتم بهذا.. والرائع في هذه اللوحة أنه مع اختلاط اللونين لم يكوِّنا لونًا ثالثًا منهما (برتقالي مثلاً)، لقد ظلَّ كل لونٍ محتفظًا بصفاته الجميلة وطِباعة الحلوة... لكن في زماننا هذا ومع تكرار تلك الكلمات نحاول فصل اللونين عن بعضهما ليصبح عندنا لوحة حمراء بها مربع أصفر، أو لوحة صفراء بها مربع أحمر.. ونسأل الله من قلوبنا ألا يحدث هذا، فاللوحة كلها ستفقد جمالها الطبيعي.

لن يفيد لونٌ منهما كثرته... ولن ينفع اللون الآخر تعاطف الناس معه لقِلته.

....

بعد هذا السرد سأحكي لكم ذكرياتي مع أُنكل سليم، وكأني أراه الآن واقفًا أمامي وأنا أكتب هذه الكلمات:

كنا نعيش في مدينة صغيرة اسمها "سخا" في محافظة كفر الشيخ وكان أبي يعمل في محطة البحوث الزراعية هناك، وفي كل ليلة يجتمع أصدقاء العمل في نادٍ صغيرٍ يسهرون ويتسامرون، فلا شيء في المدينة غير هذا النادي... وكان مع الرفاق صديق أبي: أنكل سليم؛ وهو مسيحي... كانت متعتي وأنا طفل الذهاب مع أبي إلى هذا النادي لأفوز ببعض الحلوى من أصدقاء أبي، وأستمتع برؤية أبي وأنكل سليم وهما يتبادلان التعليقات الساخرة والنِكات الساخنة. فقد كان أبي وأنكل سليم أقرب الرِفاق صداقة، وأكثر القوم مِزاحًا وضحكًا، فاذا غاب أحدهما انفضَّ المجلس.

ما زلتُ أسمع صوت أنكل سليم وهو ينادي على أبي من الشارع لكي ينزل ويذهبا إلى النادي. كنت أجري إلى شرفة المنزل وأشير له أن أبي نازل إليه، فيبتسم لي ويلوح بيده كي أنزل وأذهب معهما فأجري أنا إلى أبي والفرحة تغمرني صائحًا:

- بابا.. بابا... أنكل سليم عايزني أجي معاكم النادي.

فيبتسم أبي.. وأسير إلى النادي معهما ممسكًا بيد أبي وأنكل سليم.

في معظم الأحيان كان أبي يجلس بجوار أنكل سليم، وكان إذا وضع أحدهما يده على ركبة الأخر ومال قليلاً إلى الأمام؛ ترى

الرفاق قد أنصتوا إنصاتًا وأصغوا له إصغاءً، لأن هذه الحركة معناها إنه سيلقي عليهم تعليقًا ساخرًا قويًا شديدًا، بل إن عيونهم تبدأ في الضحك قبل أن يبدأ هو في الكلام.. وبالفعل ما إن ينتهي من كلامه حتى أراهم جميعًا قد انفجروا ضحكًا حتى تدمع العيون وأنا أنظر اليهم من خلف زجاجة الكوكاكولا الفارغة أمامي... كنتُ لا أفهم كثيرًا مما يقولون، لكني كنت أضحك من ضحكهم.

كم من مرة يريد أبي أن يعاقبني على خطأٍ فعلتُهُ، فأجري وأختبئ خلف أنكل سليم، فيدير وجهه لي ويضمني بين يديه ويقول لأبي:

- سامحه المرة دي بس.. عشان خاطري.

فيسامحني أبي من أجل خاطر أنكل سليم.

ويوم أن تركنا "سخا" وانتقل أبي إلى القاهرة عام ١٩٦٨؛ وكنتُ في التاسعة من عمري؛ جاء أنكل سليم وزوجته "طنط نادية" وبقيا معنا اليوم كله لمساعدتنا، ثم أخذ يودِّع أبي وكأنهما جسدًا واحدًا وقد تمزق جزءين.

لاحت في العيون سحابة من شجن ثم أمطرت بعدها دمعات.

للفراق يدمعا وهما من أضحكا المكان.

لم أرَ أنكل سليم بعدها... ولكن ماغابت يومًا الذكريات.

تبقى الذكريات أخفيها من الأيام في أعماق قلبي.

أخفيها حتى لا تدِّنسها أحداث الزمان، أو تسرقها أهواء قوم.

وحين يشتد الظمأ وتجهدني الليالي أذهب إليها لأرتوي منها وألقي برأسي المجهد على صدرها.

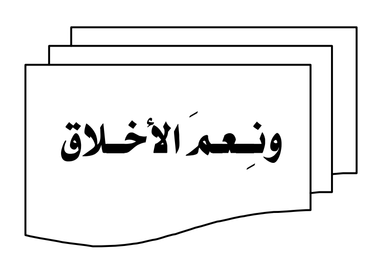
وفي الظلام أسترجعها أمام عيني حتى أفهم ما يدور حولي وأعرف كيف أحكم على الأمور.

واليوم يأتي واحد معتوه يقول لي... إن أنكل سليم شريك لي في الوطن!.

ويحك أيها الأحمق... من أنت حتى تحدثني عن أنكل سليم؟

إنه يملك قلبي... فكيف لا يملك الوطن.

• • • • •



كندا - ٢٠٠٨

مدينة وينسور – ولاية اونتاريو

أكتب هذه القصة من أجل خاطر أبنائي، فقد غضبوا مني لأنني أكتب قصصًا عن أصدقائي ولا أكتب شيئًا عن ذكرياتي معهم... وهذه هي بعضٌ من ذكرياتي معهم...

في يوم من أيام صيف جميل بكندا كنت أستعد لأداء صلاة المغرب وإذا بجرس التليفون يرن. أنا لا أردُّ على أي تليفون حتى ولو كنتُ بمفردي في البيت، فمع خبرة ٥٠ عامًا مع التليفون أنا لم أسمع من هذا الجهاز خبرًا حلوًا قط، فهجرته هجرًا جميلاً.. لكن لسوء حظي في هذا اليوم كان التليفون بجواري تمامًا، وبحركة لا إرادية رفعتُ السماعة وبدأت الحديث قائلاً:

- ألو

- مساء الخير

- مساء الخير

- أولاً أحب أشكرك على الأمانة والأخلاق

كان صوت رجل، وعندما سمعتُ منه هذه الكلمات؛ توقعتُ إنها إحدى مكالمات الدعاية للإعلان عن منتج معين أو خدمة ما، والتي دائمًا تبدأ بهذه الكلمات المعسولة والشكر والمديح.. لذلك أكملتُ الحوار معه بمنتهى البرود وعدم الاهتمام حتى أنهي المكالمة بأسرع وقت، فقلت له في عجالة:

- العفو

- حقيقي أنا احترمت هذا الخُلق الجميل والتصرف النبيل

- أخلاق مين؟... تصرف إيه؟

- أخلاقك اللي اتعاملت بيها معايا

- معاك؟.. إنت مين؟

- أنا صاحب العربية.

- صاحب العربية ؟؟... طب يا سيدى حصلنا الشرف يا صاحب العربية... بس عربية مين؟

- العربية بتاعتي

- بجد؟... حقيقي... إنت صاحب العربية بتاعتك... وإنت بقى مكلمني عشان تعرَّفني إنك صاحب العربية بتاعتك.. من الآخر كده إنت عايز تبيع إيه عشان أنا مش هاشتري؟

- هاهاهاهاهاه.. لأ أنا مش ببيع حاجة.. أنا بكلمك عشان أعرَّفك تكلفة تصليح العربية.
- تصليح عربية مين؟
- تصليح عربيتي.
- تصليح عربيتك... طب وأنا مالي... إنت فاكرني ميكانيكي؟
- واضح إن النمرة غلط ... بس مش إنت اسمك هشام؟
- أيوه أنا هشام والحمد لله.
- هشام الجندددد... الجندووووو... الجنداؤري؟
- الجنزوري... الجنزوري يا سيدي... أيوه أنا هو.
- ومش ده رقم تليفونك اللي بأكلمك عليه؟
- أيوه هو رقم التليفون.
- يبقى إنت... باختصار تصليح العربية هايتكلف ٣٥٠ دولار.
- ٣٥٠ دولار ؟؟؟؟؟؟؟؟ !!!!!!!!!!
- أنا جبت ٤ أسعار لتصليح العربية: الأول التوكيل، ١٢٠٠ دولار.. التاني ٨٥٠ دولار.. والتالت ٥٠٠ دولار.. والرابع قال ٣٥٠ دولار.. وأنا قرَّرت أصلحها بـ ٣٥٠ دولار.
- عين العقل... ليه تدفع ١٢٠٠ دولار لمَّا ممكن تصلحها بـ ٣٥٠ دولار.. هو إنت بتلاقي الفلوس في الشارع... آه وبعدين..
- بس كده

- بس كده ؟؟؟!!!... إنت بتتكلم جد... بس كده... حقيقي بس كده... طب يا سيدي أنا بأشكرك بشدة على المعلومات القيمة اللي إنت قولتها ليا النهاردة.. يعني حضرتك صاحب عربية.. حضرتك هاتصلح عربيتك.. حضرتك هاتدفع ٣٥٠ دولار في التصليح بدل ١٢٠٠... أنا بقى دخلي إيه في الموضوع.
- أنا بس حبيت أعرفك وأتأكد إنك موافق
- موافق على إيه؟... موافق إنك تصلح عربيتك... يعني كل واحد في ويندسور قبل ما يصلح عربيته يكلمني ياخد موافقتي؟
- مش إنت اللي هاتدفع
- هادفع؟... هادفع إيه؟
- تدفع تمن التصليح
- تصليح... تصليح إيه؟
- تصليح عربيتي
- تصليح عربيتك؟... إنت عايز مين؟.
- هشام الجنددددد.....
- الجنزوري، خلّص بقى... وهشام الجنزورى يدفع تمن تصليح عربيتك ليه؟... عشان لمَّا تمشى بيها تبقى صدقة جارية
- مش إنت اللي خبطتها
- خبطت مين؟

- خبطت العربية... إنت نسيت؟
- أنا خبطت عربيتك؟!... خبطتها إمتى ؟!... وإزاي؟!... وفين؟!
- الأسبوع اللي فات... خبطها بعربيتك... في السينما.
- سينما... كان فيلم يعني؟.. ولا إيه الحكاية؟.. ولا أنا دخلت بالعربية في السينما كلها؟
- قصدي في موقف العربيات بتاع السينما.
- سينما مين؟... أنا أخر مرة دخلت السينما كانت من ١٢ سنة... في شارع سليمان في وسط البلد... وكنت رايح بالأتوبيس.
- أنا بأكلمك على سينما فورست جلاد يوم التلات اللي فات.
- طب بس وضّح الأمور شوية... أنا خبطت عربيتك إزاي؟!
- مش عارف... أنا خرجت من السينما لقيت العربية مخبوطة.
- حلو قوي... مين قال لك إني أنا اللي خبطت العربية؟
- إنت.
- أنا !!! ياعم إنت عايز مين بالظبط؟
- عايز هشام الجنداؤري.
- الجنزوري... قلنا الجنزوري... مش صعبة قوي يعني... جنز... او... ري
- غنت اللي قولت لي إنك خبطت العربية، وكمان دخلت قلت لمدير السينما إنك خبطت عربيتي.

- كمان دخلت قلت لمدير السينما... هو أنا كنت فرحان قوي كده إني خبطت عربيتك... ليه، هو أنا كنت بصور مشهد وكنت عايزهم يدوني دور في الفيلم؟!

- بالعكس ده كان تصرف ذكي منك وفي منتهى الأخلاق.

- أخلاق إيه بس.. طيب لما أنا قلت لك إني خبطت عربيتك مادفعتش لك الفلوس ليه ساعتها بدل الهمّ اللي إحنا فيه دلوقتي؟

- ما هو أنا ماشفتكش... إنت مشيت قبل ما أخرج أنا من السينما.

- ماشوفتنيش.. ماشوفتنيش إزاي.. مش أنا اللي قولت لك إني خبطت عربيتك؟... من فضلك وضح كلامك... أنا الإنجليزي بتاعي تعبان شوية وحاسس إني مش فاهم حاجة منك... تحب نتكلم بالعربي يمكن إنت تفهم عربي أفضل من إني أنا أفهم إنجليزي؟

وهنا يظهر أحمد ابني على باب غرفته وهو يلوح لي بيديه ويقفز على قدميه ويهمس لي

- بابا... بابا

تركت الرجل على التليفون واتجهت صائحًا بأحمد:

- إنت عايز إيه إنت كمان... أنا مش ناقصك تتنطط جانبي... كفاية العفاريت اللي بتتنطط في وشي الساعة دي.

- أنا عايزك يا بابا

- عايز إيه؟... سيبني دلوقتي في المصيبة اللي أنا فيها... أنا مش عارف الراجل ده مجنون ولا تايه ولا إيه حكايته

- ماهو أنا... أنا يا بابا... أنا الليييييي.......

- إنت إيه... إنت قصدك إن إنت الليييييي... يا نهار مش فايت...

ثم أخذتُ سماعة التليفون وقلت للرجل:

- لا مؤاخذة يا حاج... ممكن ٥ دقايق بس... أنا ابتديت أفهم... خليك معانا على التليفون

ثم توجهت إلى أحمد والغيظ يتملكني صائحًا:

- إيه بقى الموضوع؟

- وأنا خارج من موقف العربيات بتاع السينما خبطت عربية كانت جانبي.

- وبعدين؟

- الدنيا كانت ضلمة وصاحب العربية ماكانش موجود.

- وبعدين... بسرعة

- قلت مش معقول أجري وأسيب العربية بتاعة الراجل كده.

- لأ أخلاق... ماشي يا سيدي... وبعدين؟

- ما أنا لو جريت كنت إنت هاتزعل... كنت هاتزعل ولا لأ؟

- يا بني ادخل في الموضوع... خلصني إيه اللي حصل؟

- جبت ورقة وقلم وكتبت فيها إني أنا اللي خبطت العربية وكتبت كل بياناتي ورقم تليفون البيت وحطيتها على العربية من قدام تحت المسَّاحات... وكتبت برجاء عدم إبلاغ شركة التأمين وأنا سوف أقوم بدفع ثمن التصليح.
- بياناتك ؟؟... بس ده بيقول إني أنا هشام الجندؤلي اللي خبط العربية؟
- آه... ماهو أنا كتبت اسمك إنت.
- كتبت اسمي أنا... اسمي أنا ليه؟
- مش إنت بابا؟
- لأ... أنا ماما.
- يعني ترضى إن راجل غريب يتصل بالبيت ويكلمني أنا وحضرتك موجود

وهنا أسمع صياح الرجل على التليفون... ألو.. ألو... فصحت أنا فيه:
- الصبر شوية... خلاص إحنا وصلنا للمسَّاحات.

ثم قلتُ لأحمد:
- طب وإيه دخل مدير السينما في الموضوع؟
- آه طبعًا... مدير السينما ده مهم جدًا... أنا فكرت إن الهوا كان شديد وممكن الورقة تطير وبالتالي الراجل ما يعرفش يوصل لي... قصدي ليك.

- لأ حاويط... وبعدين..
- دخلت لمدير السينما وقلت له إن أنا اللي خبط العربية وكمان كتبتُ له كل بياناتي... قصدى بياناتك يعني.
- حلو قوي... وبالمرة ما دخلتش ماكدونلادذ تقولهم إن بابا خبط العربية وتكتب لهم بياناتي؟... وكمان ما بلغتش عني البوليس إني خبطت عربية؟... ده إنت ابن حلال... ربنا يكرمك.
- معلش يا بابا... غصب عني... الدنيا كانت ضلمة وماشوفتش العربية.
- أنا عايز أفهم مش المفروض إنك تقول لي من يوميها؟
- ما إنت كنت هاتزعل...
- آه هازعل... حاكم أنا دلوقتي فرحان... ما أنا كنت هاعرف هاعرف...
- بس لما تعرف من الغريب أحسن ما تعرف مني.

وهنا أتوجه إلى الرجل على التليفون قائلاً له:

- أنا بأعتذر لك بشدة... في الحقيقة ابني هو اللي خبط عربيتك وأنا ماعرفش ومن هنا جاء سوء التفاهم.
- ابنك هو اللي عمل كده... ونِعمَ الأخلاق...
- آه طبعًا ونِعمَ الأخلاق... ما إنت مش دافع حاجة... أنا اللي هايدفع تكلفة نعم الأخلاق... على كل حال ابني هايجيلك ومعاه الفلوس... خد كلّمه عشان ياخد منك العنوان.

ثم قلت لأحمد كاتمًا غيظي...

- يعني صلاة المغرب راحت وكمان ٣٥٠ دولار... ربنا يسامحك ويسامحني

....

§ القصة الثانية... علي باشا...

ده بقى صريح ودوغري ويُلقي على أسماعنا الأخبار السيئة بدون أي رتوش أو تجميلات أو تشطيبات... يعني بصراحة بيسلمنا الأخبار السيئة على المحارة... ونشطب إحنا براحتنا.

كنتُ جالسًا ذات مساء مع زوجتي نشاهد فيلم "بين السماء والأرض"، وأنا أعشق دور عبد الغني النجدي في هذا الفيلم؛ وهو خادم الخواجة؛ كنت بمجرد ظهور وجه عبد الغني النجدي على الشاشة أضحك من قلبي ولكن قبل أن أقول... خير اللهم اجعله خير... دخل علينا علي قائلاً:

- بابا...

- نعم يا حبيبي...

- أنا عملت حادثة وخبطت عربية.

- بتقول إيه... إزاي؟ وإمتى؟ وفين؟

- دلوقتي حالاً.

- حد جرى له حاجة؟
- لأ
- الحمد لله... إيه اللي حصل؟
- عند بيت عمو جمال بعد ما وصلتْ سلمى أختي رجعت بالعربية بضهري وخبطت عربية كانت راكنة في الشارع وماكنتش شايفها.
- مية مرة أقول لك سوق بالراحة... خلي بالك وإنت راجع... على مهلك... لكن مافيش فايدة... نفسي أفهم بترجع بسرعة ليه؟... وراك إيه؟... مستعجل ليه ؟... طبعًا أكيد كنت مستعجل عشان تلحق أصحابك... إنت مجنون بأصحابك دول... إنت مش بترد عليا ليه؟... سايبني كده دمي يتحرق...
- مش إنت اللي قولت لنا كده.
- قولت لكم.... قولت لكم إيه؟
- قلت لنا لو أي واحد عمل مشكلة ييجي على طول يحكيها لي... طبعًا أنا لازم في الأول أزعل وأغضب وأزعق وأتعصب... لكن مش مهم... استحملوا شوية... هي كلها نص ساعة وأهدى وبعدين نقعد نحل المشكلة بعد كده بهدوء... ودلوقتي فات ٥ دقايق.
- لا ياواد بتسمع الكلام وبتعمل بالنصيحة... المهم صاحب العربية عمل إيه؟

- ده حرامي... ده نصاب... ده مفتري...
- ليه عمل إيه هوه كمان؟
- يا بابا الخبطة بسيطة جدًا... مجرد خدش وحكة في جنب العربية وبيقول عايز ٣٠٠ دولار !
- الخبطة فعلا مش جامدة؟
- خالص يا بابا... حتى تعال شوف عربيتنا مافيهاش حاجة... حتة صغيرة في الإكسدام.
- هو اللي قال عايز ٣٠٠ دولار؟
- آه.. بس أنا قلت له لا طبعًا... وقلت له أنا هاجيب بابا يتفاهم معاك... وهو مستنينا دلوقتي.
- طب ناخد ٣٠٠ دولار معانا احتياطي.
- يا بابا لأ... ده استغلالي... هو عايز يكسب من الحادثة ويعمل منها فلوس... أنا رأيي ١٠٠ دولار كفاية جدًا وزيادة.
- ماشي يا علي... ناخد ١٠٠ دولار كفاية جدًا وزيادة.

وصلنا أنا وعلي إلى بيت الرجل وقبل أن ندخل البيت سألت علي:

- فين ياعلي العربية اللي إنت خبطتها؟
- دي يا بابا... الخبطة اللي في الجنب.
- يا نهار مالوش ملامح... الخبطة اللي في الجنب؟!
- أيوه يا بابا... هي بس الحتة دي.

- حتة !!! ده الجنب كله راح... دي العربية متخرشمة.
- إيه يا بابا إنت هاتعمل زيه وتهول الموضوع؟
- أهوِّل الموضوع... دي المراية مكسورة، والباب هايتغير، والرفرف مش نافع... إنت يابنى كنت راكب جرار لما خبطته؟.
- إيه يا بابا... هي الخبطة جامدة؟.
- إنت يا بنى متأكد إنه قال ٣٠٠ دولار بس؟
- استنى يا بابا... صاحب العربية جاي هناك أهو

يأتي صاحب السيارة، ويقف ينظر إليها معنا وأنا أتصبب عرقًا من الإحراج والخجل ولا أجد ما أقوله... لكنني استجمعت كل قوتي وقلت له:
- أنا آسف جدًا... بس إنت متأكد إن ٣٠٠ دولار كفاية؟

فيقول الرجل وهو يبتسم:
- طبعًا تصليح العربة هايكلف أكتر من كده بكتير... لكن أول حاجة أنا احترمت ابنك لما جه وخبط على باب بيتي وقال إني أنا اللي خبطت العربية... أنا كتير بأنزل ألاقي العربية مخبوطة واللي خبطها مشي... لأن زي ما إنت شايف ده شارع ضيق وزحمة واتجاهين... تاني حاجة أنا بأشتغل في ورشة تصليح عربيات، يعني أنا اللي هأصلحها، عشان كده أنا طلبت بس تمن قطع الغيار.

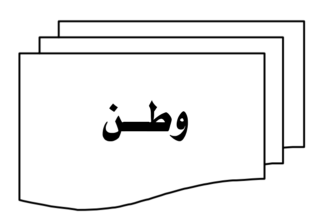
توجهت إلى علي وقلت له باللغة العربية:

- بقى هو ده اللي نصاب... تروح جري تجيب ٣٠٠ دولار وتديها للراجل وفوقهم بوسة.

ثم شكرت الرجل واعتذرتُ له مرة ثانية... فقال لي:
- أنا عايز أقول لك حاجة: ابنك ده شاب محترم... ونِعمَ الأخلاق...

أنا كرهت نعم الأخلاق... أنا كرهت الأخلاق كلها... عمَّال أدفع في دم قلبي وكل اللي باخده... ونعمَ الأخلاق.

• • • • •



ولاية أوهايو - أمريكا - ٢٠١١

أثناء سفري دخلتُ إحدى محطات البنزين في مدينة صغيرة بولاية أوهايو بأمريكا، فالوقود قد أوشك على النفاد... وكانت تعمل بهذه المحطة فتاة في العشرينات من عمرها، ومن ملامحها الشرقية ومن الاسم المعلق على قميصها عرفت أنها عربية، فبدأت كلامي معها باللغة العربية وقلتُ لها مازحًا بلهجتي المصرية:

- عايز حبتين بنزين حلوين من على وش التانك

وبمجرد أن بدأتُ كلامي معها باللغة العربية احمرَّ وجهها ودمعتْ عيناها وأنا في ذهول لا أدري ماذا فعلتُ... وبعد أن هدأتْ قالت لي إنها مسيحية من العراق، وبعد الغزو الأمريكي هربتْ مع أسرتها ودخلوا لاجئين لأمريكا، ولم يجد أحد من أسرتها عمل إلا هي فقط، فهي تعمل بهذه المحطة في هذه المدينة الصغيرة التي ليس بها جالية عربية.. فلما تحدثتُ معها بالعربية أيقظتُ شجنًا وحنينًا في قلبها للوطن الذي ضاع، فراحت تبكي... فقلتُ لها :

- لكنكِ أنتِ وعائلتك هنا بخير.

تسللتْ نظراتها من بين دموعها وقالتْ:

- أنا لا أبكي عائلتي.. إنما أبكي وطنًا كان يحضن عائلتي... أبكي أهلاً يحبونني ويموتون كل يوم في الشوارع.. فكيف أني بخير.

نظرتُ إلى الأرض خجلاً لا أجد ما أقوله لها، فاسترسلتْ هي قائلةً:

- أبكي ذكريات تحترق على ضفاف فؤادي...

أبكي طفولتي وهم يسرقونها من أيام عمري...

أبكي ترابًا حبوتُ عليه طفلةً وما زالت حباته عالقةً على وجهي وملابسي.. فكيف أني بخير

أبكي رفيقات هُنَّ كل ما ملكت من دنياي... كُنَّ ضحكي إذا فرحتُ وكُنَّ دمعي إذا حزنتُ.. افترقنا وما زالت أسماؤهنَّ نجومًا تُضيء ظلام قلبي وتركتهنَّ.. حتى الوداع ضنَّ الزمان به علينا.... فكيف أني بخير.

أبكي صُحيبات لعبتُ معهن... ضحكت معهن... ولا تسأل واحدةٌ عن دين أخرى... واليوم باسم الدين يقتلون الضحكات.. فكيف أني بخير... وكيف أنك تراني بخير؟.....

لملمتُ من ذاكرتي بعض كلماتٍ محفوظة أصبِّرها بها وأهوِّن عليها وأمسح بها على شجونها، فقلت لها:

- لا تبكي... إن البكاء لن يُفيدك بشيء

لا تبكي... فقطرات دمعك لن تُطفئ نار الفتنة في الوطن

لا تبكي... وكوني أقوى من الأيام
لا تبكي.. فالحق يومًا سيكسر القضبان ويهرب السجَّان
لا تبكي... باللهِ عليكِ لا تبكي... لا تبكي يا أختاه

ثم ذهبت بعيدًا عنها حيث لا تراني... وبكيت أنا !!!
فقد أيقظتْ في قلبي ما أيقظتُ أنا في قلبها، وقد حدَّثتني نهارًا بما أحدِّث به نفسي كل مساء، وكأنها كانت تحكي لي عن همومي، أو كأنها فتحت قلبي وراحت تقرأ منه أحزانها.

نعم... نحن شعب واحد، والجرح أيضًا واحد... يئن عندى وينزف عندها.

• • • • •



العجوزة – مصر – ١٩٧٢

- بس يا ابني انت وهو.. كل واحد يبص في ورقته.. اللي هايتكلم هارميه من الشباك ده... اللي هايبص على ورقة اللي جانبه ها أعلقه على سنجة التروللي اللي ماشي على الكورنيش هناك... فاهمين... يلا يا خويا انت وهو ابتدوا الامتحان.. أدي دقني لو فلحتوا.

على هذا الدعاء الجميل بالتوفيق، وبهذه الكلمات الرقيقة ذات المشاعر الطيبة التي لها فعل السحر في النفوس الحالمة، وبصوت حنون من مراقب اللجنة.. بدأنا امتحان نصف السنة في اللغة العربية، وكان عام ١٩٧٢، حيث كان التروللي ما زال يسير على شارع الكورنيش بالعجوزة ببطئه الشديد كالتائه من والديه... نعم.. أنا من سبعينات القرن الماضي.

كنتُ أحبُّ مادة اللغة العربية، وكنت أيضًا أحبُّ مُدرسها ولا زلت أذكر اسمه "الأستاذ أحمد نصر"... وفي الامتحان أول ما بدأت به

كان موضوع التعبير لأني كنت أحبه حيث لا قواعد ولا قوانين، فقط تكتب ما يدور بذهنك وترسم أفكارك في كلمات.. وكان الموضوع عن الشباب ودوره في المجتمع.. وبدأت الكتابة، ولكني تذكرت أن الأستاذ أحمد قال لنا ذات مرة من الأشياء الجيدة في التعبير أن تبدأ بأبيات شعر من نفس الموضوع، فأخذت أبحث في خزائن ذاكرتي عن أي أشعار تصلح لأي موضوع فلم أجد بيتًا واحدًا. لم يغلبني اليأس وقلت لنفسي :

- إيه المشكلة أكتب أنا بيتين شعر من تأليفي... هي حكاية؟

نعم لقد أخذت القرار وعقدت العزم وصدقت النية على كتابة أبيات شعر من بنات أفكاري ومن وحي إلهامي وأنا لا أدري كيف سينزل الوحي في هذا الفصل ومع هذا المراقب الذي يزعجنا كل خمس دقائق بصوته الحنون السابق صائحًا فينا "بص قدامك".

أتيتُ بكل ما أملك من أسماء وأفعال وحروف ووضعتها أمامي، ثم كوَّنتُ فِرقًا من الكلمات التي لها نفس القوافي، ثم رحتُ أقدِّم وأؤخِّر.. أرفع وأنصب.. أكتب وأشطب.. أزيد وأنقص.. أكمل وألغي... حتى بدأ الضباب يزول عن كلماتي شيئًا فشيئًا وبدأتْ رؤية المعاني تتضح رويدًا رويدًا، حتى جئتُ بالآتي:

حطِّموا القيود   زلزلوا الصعاب
أقيموا المجد   واقتحموا السحاب
ابنوا الغد   غدًا بلا ضباب
بعزيمة الرجال   وأمل الشباب

بغض النظر عن القوافي والأوزان، وبدون مراعاة أي قواعد للشعر والبحور؛ فقد كانت الفرحة تملأ قلبي ونشوة النصر تغمرني وأنا أكرِّر قراءة هذه الأبيات مرات ومرات، ورحتُ أتخيل الأستاذ أحمد وهو يقرأها ويدندن بها ويضعني في مرتبة شوقي وناجي ورامي.. ولكنني لم أنمْ كثيرًا على هذه المرتبة، فقد أيقظني من عزِّ نشوتي صوت المراقب الحنون وهو يصيح :"باقي من الزمن عشر دقائق". فوجدتني أصرخ فيه :"عشر دقايق مين يا عم... أنا ماعملتش حاجة خالص".

بالفعل ورقة الإجابة لم أكتب فيها إلا اسمي وهذه الأبيات... وأسرعت بلا تفكير أجاوب سؤالاً من هنا وسؤالاً من هناك، حتى انتهى الوقت وأنا لا أعرف أين ذهبت ساعات الامتحان...

....

في أول حصة عربي بعد الامتحان دخل الأستاذ أحمد الفصل ونظر لي غاضبًا ثم قال:

- إيه يا ابني الامتحان اللي زي الزفت ده؟

- إنت السبب يا أستاذ

- أنا السبب ؟؟؟؟؟؟؟؟

- آه طبعًا... مش إنت قلت لنا شيء جميل لو تبتدي التعبير ببيتين شعر؟

- أيوه يا سيدي تبتدي... مش الموضوع كله يبقى بيتين شعر.. وبعدين البيتين دول جبتهم من أي داهية
- دول من تأليفي يا أستاذ
- تأليفك ؟؟!! إنت عملت فيها شاعر الابتدائية المشتركة وقعدت تألف بيتين شعر وسيبت الامتحان كله وقمت تروَّح؟...
- أنا ما روحتش.. أنا فضلت واقف على باب اللجنة أعيط.. وكمان أنا ما سبتش الامتحان أنا جاوبت برضه شوية...
- جاوبت إيه؟... النحو... معظمه غلط...
- النحو كان صعب وأنا كنت مستعجل...
- مستعجل!!!.. بص يا سيدي هات جمع "امبراطور" يعني ده كلام اللي إنت كتبته ده؟!
- أنا مش عارف الجمع بس عارف المعنى وكتبته...
- إيه يا ابني اللي إنت عارفه ده.. بقى جمع امبراطور يبقى الطغاة الظلمة الكفرة... إنت بتشحت؟!
- مش إنت قلت حاول تجاوب كل الأسئلة اللي تعرفه واللي ماتعرفوش يمكن اللي ماتعرفوش يطلع صح.
- بس مش أي كلام كده.. وبعدين جمع امبراطور أنا قلتها في الفصل... الجمع أباااااااطرة
- أبو مين؟!!!

- أباااااطرة على وزن أفااااااعلة.
- صادق يا أستاذ من غير ما توزن هو إنت هاتخمني... أباطرة... أبا نواس اللي تشوفه حضرتك.
- بدل ما تهزر يا فالح كنت اكتب أي كلمتين في موضوع التعبير أي حاجة عن المجتمع ورفع مستوى المعيشة عشان تاخد أي درجات.
- يا أستاذ أنا مش عايز أرفع مستوى المعيشة دلوقتي أنا عايز أرفع مستوى درجة الامتحان ده.
- بص يا ابني أنا هاحاول أنجحك.. بس بعد كده لازم تدخل في موضوع التعبير على طول وبعدين خلص الامتحان.. ويا سيدي لو فاضل وقت ابقى اكتب لهم شعر أو حتى اخرج فيلم كمان لو عايز.
- خلاص يا أستاذ ما تقطمنيش اللي حصل حصل.
- يا ابني عشان تجيب درجات عالية لازم تعرف من أين تؤكل الكتف.
- كتف؟؟!!... أنا داخل امتحان ولا داخل مسمط؟... وبعدين كتف دي جمعها إيه ينفع "أكاااااااتفة" ؟

أخذ الأستاذ أحمد عصاه الملقاه على مكتبه وضربني على..... (نقدر نقول مؤخرتي) وهو يقول:

- لأ جمعها أضاااااربة يافالح... خش مكانك...

فعلاً أخذت بنصيحة الأستاذ أحمد في كل حياتي بعد ذلك، فكنت إذا دخلت أي عمل وبدأت اللف والدوران أقول لنفسي: "إنت هاتستهبل.. ادخل في الموضوع على طول وخلي الشعر في الآخر"...

وإلى الآن لا أدري متى سأبدأ في الشعر.

• • • • •



كندا - ١٦ يونيو ٢٠١٣

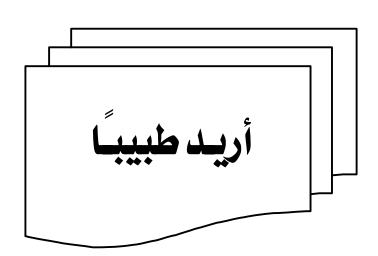
في عين كل واحدٍ منا دمعة مُتحجرة تقف بين الجفون
دمعة مُتحجرة لا تسقط فيرتاح، ولا تجف فيغمض عينيه وينام
دمعة مُتحجرة يحاول أن ينساها ولكنها دائمًا أمام عينيه
حتى عندما يضحك.. تهتز الدمعة في المآقي.. تلومه.. تذكِّره.. تعاتبه.. كيف أنك تفرح ؟!
دمعة مُتحجرة تتحطم عندها باقي أحزانه.. وتهون بعدها كل همومه

فقبل أن تخاصم.. قبل أن تغضب.. انظر في عين أخيك لعلك ترى دمعته المُتحجرة فتسامح وتصفح وتمسح بأحزانك على أحزانه ولترحم دمعته.. كدمعتك التي لا تعرف كيف تسيل على الخدود
فالعيون وإن اختلفت فإن الدموع كلها تتشابه

إلهي:

طالت الدنيا بنا.. وثقلت علينا أحزاننا.. وضجت بالهموم قلوبنا.. وشابت مع قصرها أعمارنا.. وضاقت بنا كل السُبل.. ولم يبقى إلا رحمةً منك بنا..
اللهم فارحم.

• • • • •



أريد طبيبًا

كندا - أبريل ٢٠١٣

منذ فترة وقد بدأ يحدث لي شيءٌ غريب، فكلما أقف أشعر لثوانٍ بدوران في رأسي وزغللة في عيني، ومع الأيام تزداد حدة هذا الدوران ويزداد أكثر إذا وقفتُ فجأة، حتى أنني منذ أسابيع قمت واقفًا فلم أدري إلا وأنا نائم على الأرض.. يبدو والله أعلم أني سقطتُ على الأرض من هذا الدوران.. فقلتُ لنفسي: لابد مما ليس منه بد، أي لابد من الذهاب إلى الدكتور، فأنا أتعامل مع جسدي كما أتعامل مع سيارتي لا أذهب إلى الميكانيكي إلا إذا كانت جثة هامدة.

ذهبتُ بالأمس إلى طبيب العائلة؛ وهو رجل طيب من سوريا.. دخلتُ عليه فإذا على وجهه علامات البؤس والحزن، وفي عينيه نظرات ألم وحسرة، وفي نبرات صوته جراح مكتومة.. تلمح في تنهداته حال سوريا الحبيبة؛ قتل وحرق ونهب واغتصاب، وأخيرًا كيماوي.. لكنه بمجرد أن رآني راح يدعو لمصر والمصريين..

فقلتُ له: ألا تدعو لسوريا، فأنتم هذه الأيام أولى بالدعاء منا... فابتسم ابتسامة حزينة وقال لي: إذا انصلح حال مصر؛ انصلح حال العرب كلهم.

تجاذبنا أطراف الحديث، وراح يشكو لي حال الأهل والأحبة.. ثم سألني:

- ماذا بك؟... مما تشكو؟

نظرت في عينيه الحزينة وأنا أهمس لنفسي:

- يا عم هشام.. الراجل مليان جراح وهموم وأحزان.. هاتيجي إنت كمان وتزود همومه وتشكي له من دوخة وزغللة.. يعني هاتشيله همومك فوق همومه.. حرام عليك الراجل طيب وفيه اللي مكفيه.

فابتسمتُ له ابتسامة موجعة وأنا أقول له:

- أنا الحمد لله بخير يا دكتور... المهم إنت

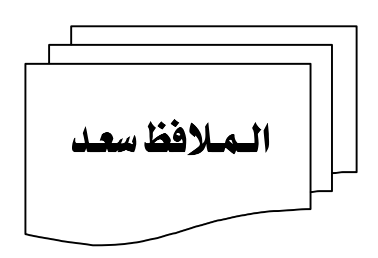
ثم تركته وانصرفت

....

لمن نشكي جراحنا والكل جراح.. ومن يداوينا والطبيب فيه ما فينا إيه يعني شوية دوخة في الدماغ وحبة زغللة في العين وسط الهموم اللي إحنا عايشينها

الله المستعان.

• • • • •



كندا – مايو ٢٠١٣

بعد القصة إياها بتاعة الدوخة والصداع اللي عندي، وبعد الدكتور السوري ما قطَّع قلبي على حال سوريا وأهلها.. نصحني الأصدقاء إني لازم أروح لدكتور تخصص مخ وأعصاب.. الدكتور المرة دي كان من ليبيا.. بصراحة أهم حاجة عندي إن الدكتور يكون من بلاد الربيع العربي عشان يقدر يحس بآلامي ويتفهم أوجاعي..

المشكلة إن الدكتور كان مسافر ليبيا في أجازة ولسه راجع.. كلمة منه على كلمة مني.. الراجل راح مفضفض معايا بكل اللي شافه في ليبيا.. بصراحة أنا جالي اكتئاب من اللي سمعته وحبيت أغيَّر الموضوع فقلت له: واضح ان الناس كلها دايخة.. مش أنا بس.

الدكتور طلب تحليل للدم.. خرجت من عنده مكتئب ودمي بيتحرق ورحت جري على المعمل عشان تحليل الدم قبل دمي كله ما يشيط.

طلعت نتايج التحاليل ورحت عشان أقابله.. الدكتور بص في التحاليل وقال: هيموجلوبينك واطي.

بصيت له وقلت:

- الله يسامحك.. الشتيمة تلف وترجع لصاحبها

ضحك وقال لي:

- طب ماتزعلش.... كلسترولك عالي

فرحت وقلت له:

- ربنا يعلي مقدارك.. أهو ده الكلام.. ده حتى الملافظ سعد
- أنا شايف إن التحاليل كلها عادية
- طب إيه حكاية الهيموجلوبين والكلسترول دي يا دكتور؟
- بالنسبة لسنك دي حاجة مش خطيرة لكن هانشوف لها علاج .. بس أنا عايز أعمل شوية أشعة عشان نطمن
- ومالو يا دكتور.. إعمل براحتك
- اعمل الاشعة دي كلها في المعمل اللي في الدور الأرضي، وهما هايبعتوا لي التقارير كلها
- ومالو يادكتور.. يبعتوا براحتهم
- لو كان في التقارير حاجة خطيرة ها أكلمك في التليفون ونحدد ميعاد أشوفك فيه

الحمد لله.. فات أسبوعين والدكتور ما اتصلش بالتليفون.. يعني أطمن مافيش حاجة خطيرة

بس بيني وبينكم أنا من ساعة ما عملت الأشعة وأنا رافع سماعة التليفون... ماهو على رأي المثل: التليفون اللي يجيلك منه الريح؛ ارفع سماعته واستريح.

• • • • •



كندا - سبتمبر ٢٠١٣

فاكرين مشاكلي مع الدوخة والصداع والأشعة ودكتور المخ والأعصاب، وكل الكلام الكبير ده، اللي في الأخر طلع عشان السن... وفاكرين الدكتور الليبي والدكتور السوري؟

المهم، أنا قلت لنفسي أنا لازم أغير النظام كله.. رحت لدكتور عيون.. والمرة دي دكتور مصري وحبيبي وجاري؛ بس من بعيد؛ ودايمًا يخدمنا؛ طبعًا بعنيه... أول ما دخلت عليه قال لي:

- أيوه ياسيدي.. جاي ليه؟
- بصراحة يا محمد.. أنا عايز أغيّر نظرتي للحياة

ضحك محمد وقال

- بسيطة.. نغيرلك عدسات النضارة.. أو نعملك نضارة بعدسات خشب عشان تشوف الحياة زان
- حُبيبي إنت يا محمد

- خلاص يا سيدي بلاش هزار.. إيه المشكلة.
- من فترة وأنا بشوف نقطة سودا قدَّام عيني.

رفع محمد نظارته من على عنييه ورماها على مكتبه ووضع يده على خده وقال:

- نقطة سودا واحدة بس.. يا بختك.. أنا شايف الدنيا كلها سودا
- يا عم إنت هاتبكتني.. مش كفاية الدكتور السوري طلعت من عنده أعيط على حال سوريا.. والدكتور الليبي خرجت من عنده وأنا عندي إكتئاب.. ياعم أنا عايز دكتور لما أكشف عنده يرفع معنوياتي.. يعني أعمل إيه.. أروح أكشف عند رقاصة
- يا سيدي ماتزعلش.. أدينا بنصبَّر بعض.. تعالى نكشف

بعد الكشف والفحص والذي منه قال لي:

- دي يا سيدي في مصر بنسميها "الدبانة السودا"
- السودا.. ليه هو في عندكم ألوان تانية
- آه طبعًا في منها ألوان، بس خارج التأمين الصحي
- المهم دي حاجة خطيرة؟
- لا إطمن.. عادي
- يعني إيه عادي.. يعني الدنيا خلاص بقت منقطة إسود
- لا طبعًا.. الدنيا لسه سادة.. بس عادي إنك تشوف نقطة سودة في الأيام اللي ما يعلم بيها إلا ربنا دي

- يعني الناس كلها شايفة النقطة السودا دي يا محمد.. ولا أنا لوحدي اللي شايفها دونًا عن خلق الله؟
- لا طبعًا مش الناس كلها.. إنت وكام واحد كده اللي شايفنها
- ودي سببها إيه دي يا محمد؟
- ده عادي.. طبيعي عشان السن
- يا عم هوه أنا كل ما أروح لدكتور بمشكلة يقول لي عادي عشان السن.. في إيه.. هو أنتم ما بتدرسوش في كلية الطب غير أمراض الشيخوخة.. هو ما فيش غير السن.. طب أعمل إيه يعني.. أروح أموت.. يعني كفاية عليا كده.. يعني أنا خدت أكتر من حقي في الدنيا.. أنا مش فاهم في إيه !!!!!!!؟

ضربتُ بيدي على مكتبه وقمت واقفًا واتجهتُ إلى باب عيادته وأنا أقول له:

- أنا ماشي.. أنا رايح دار مُسنين.. أو حتى دار أيتام لأني زهقت.. وبقول لك إيه ماتجيش تاخد من عندنا نعناع أخضر تاني.. عشان السن.. آه

....

بعد إسبوعين المشكلة زادت، اتصلت بمحمد في التليفون :

- يا محمد
- يا نعم
- الدبانة

- إشمعنى
- بتتكاثر
- يا عم ارحمني.. هو أنا ماعنديش زباين غير الدبان بتاعك
- ليه بس المعاملة دي في التليفون؟
- خلاص أنا ماقدرش أعملك حاجة
- ما تقدرش تعملي حاجة ليه .. إنت زوغت من محاضرة الدبانة في الكلية
- لا.. الأشعة أثبتت إن الدبان اللي عندك نوع نادر وقرب ينقرض.. يعني عنيك بقت محمية طبيعية.. يعني عشان أكشف عليك لازم تصريح من هيئة البيئة
- ماشى ياعم هرج هرج.. واضحك براحتك.. ما إنت قاعد في الكلية سبع سنين تدرس في عنين اتنين بس.. يعني كل عين واخد فيها ٣ سنين ونص.. الله يكون في عون دكاترة الأسنان ٣٢ سِنة وضرس وناب وفي خمس سنين بس.. دول غلابة.. عشان كده أول لما تروح له قبل ما تقول سلاموا عليكم تلاقيه قاعد في بؤك، مش فاضى وبيضحك ويهزر زي حاضرتك كده.
- طب ما تزعلش.. تعالى وأنا أكشف عليك
- لا.. أنا مش جاي.. أنا ها ابعت لك الدبان تتصرف معاه إنت
- طب خلاص.. لا تيجي ولا تبعت الدبان.. أنا ها اكتب لك على بيروسول ترش منه ٣ مرات يوميًا

- هزر هزر.. طب ياسيدي ربنا يكرمك ويكتب لك في كل خطوة مبيد.. سلام.. وأشوفك في صلاة الجمعة يوم السبت الجاي.

....

أنا بصراحة مش عارف أعمل ايه.. أبعت له الدبان.. ولا أرش بيروسول وخلاص؟!.

• • • • •



ديترويت - أمريكا - ٢٠١٢

تقابلتُ مع أصدقاء الغربة: أحمد وخالد في ديترويت، وذهبنا لتناول الإفطار في وداع خالد عائدًا إلى مصر، فأصرَّ أحمد أن يعزمنا على فطار مصري مية في المية، فأكلنا فول وطعميه وجبنة بيضة براميلي.. ليس هذا فقط ولكن أيضًا شربنا عصير قصب.. نعم عصير قصب في أمريكا (صحيح الكوباية بستة دولار.. لكن بصراحة تستاهل).

وبين جمال الصُحبة ووحشة الفراق، ومع حلاوة الذكريات ومرارة الغربة؛ ضحكنا وبكينا... اجتمعنا ثم افترقنا.

أخذتُ سيارتى عائدًا وحدي إلى كندا، وقد اختلطت بقلبي مشاعر الفرح بالحزن.. الضحك بالبكاء.. حتى إنني ما عدت أميِّز بينهما.. ما عدتُ أدرك أضاحكٌ أنا أم باكٍ.

لستُ أدري ماذا حدث لي..

من لحظات كنتُ أضحك معهم وأُضحكهم، ولا أبالي بندمٍ ولا همٍّ.. ولا أُعير جراحي اهتمامًا.. وكأني كنت معهم مخمورًا.. نعم، فضحكات الرفاق من حولي هي خمري التي تُسكِرني وتُنسيني شيئًا من جراحي...

أما وقد عدتُ وحيدًا، فبدأت أفيق من سكرها.

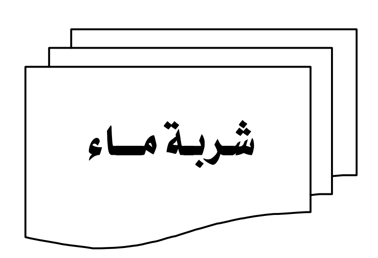
رحتُ أتلمس المشاعر بقلبي، فوجدتها غريبة عني، وكأني أنا لست أنا.. أو كأن قلبًا آخر وضعوه في هذا الجسد، هو يُشبهني ولكنه ليس أنا.. الذي كان يُضحكني ما عاد يُضحكني.. وما يُبكيني اليوم ما كان ليُبكيني بالأمس.. وما كنت أحبه بالأمس كرهته اليوم. بل أن الذي كان يرعبني قديمًا ألِفه اليوم هذا القلب.

رحتُ أعبر جسرًا فوق نهر بين كندا وأمريكا، فنظرت إلى النهر من تحتي وهمستُ له: " آهٍ.. لو كانت الآلام مثلك أيها النهر، نعبر عليها كما نعبر عليك من فوق هذا الجسر.. ثم نمضي بعيدًا عنها... لكننا نسير في مجراها، فلا نخرج منها ولا تخرج هي منا... فقط نحاول أن ننسَ ثم ندَّعي كذبًا إننا نسيناها.

سُـــئلت كيـــف أضـــحك والنظـــرة فـــي عينـــى حزينـــه
ثـــم أقبـــل دامعًـــا.. والبســـمة علـــى وجهـــي تزينـــه
فقلـــتُ لمـــن ســـأل.. واصـــفًا قلبـــي بآهـــاتٍ دفينـــه
كســـرَته فـــي الغربـــة ليـــالٍ... مـــرَّت عليـــه دهـــورْ

كـــم رأيتُـــه مكتـــوف الأيـــادي والـــدم فـــي جســـدي يثـــورْ
فهربـــتْ مشـــاعري منـــه... كمـــاء فـــي إنـــاء مكســـورْ
كالطفـــلِ يضـــحك ويبكـــي معًـــا تحتـــار فـــي أمـــره النـــاسْ
مـــا مـــات الفـــؤادُ وإنمـــا... يحيـــا.. لكـــن بـــلا أنفـــاسْ
فأنـــا قلـــبٌ بـــلا مشـــاعر.. أنـــا قلـــبٌ فاقـــدُ الإحســـاس

• • • • •



شربة ماء

١٠ يونيو ٢٠١٢

تائهانِ في صحراء واسعةٍ متناهية الأطراف
يشتدُّ الظمأ... تجفُّ الأفواه
يجدانِ بحيرة ماء.. يسرعانِ إليها حبوًا
البحيرة مكتوبٌ عليها: الماء مسمومٌ

يختلفان.. يتشاجران

الأول: سوف أشرب.. فشربة ماءٍ الآن تساوي عمري
الثاني: لن أشرب.. فعمري ما زال أغلى من شربة ماء

الأول استلذَّ المياه.. فشرب فمات
الثاني استلذَّ الحياة.. ومات ظمأً.

• • • • •



هناك قصة لعُمر وعلي رضى الله عنهما يرتاح لها قلبي:

عاد جيش المسلمين من إحدى معارك الفرس في عهد خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقدموا له كل الغنائم، وكان من بين هذه الغنائم قطع صغيرة من الذهب.. فبكى أمير المؤمنين، فسأله علي بن أبى طالب عن سبب بكائه فقال إنه يبكي أمانة افراد جيشه حتى إنهم عادوا له بهذه القطع الصغيرة من الذهب... وهنا قال له علي بن أبى طالب كلمات حيرتني.. كلمات أبكتني

بكيت عمرًا ضاع من عمري

بكيت عدلاً مات في قلبي

بكيت وطنًا ضاع فيك يا وطني

بكيت رجالاً في زمنٍ يئنُّ من قلة الرجال فيه

فقد قال له الامام علي كرم الله وجهه

- عففتَ فعفَّتِ الرعية يا عمر.. ولو رتعتَ لرتعوا

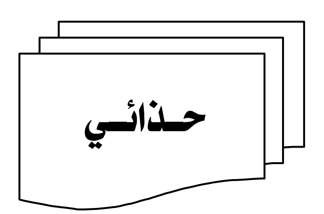
يا صحابة رسول الله:

مَنْ علَّمكم هذه الكلمات؟... مَن أفهمكم هذه المعاني؟
أهي صحبة رسول الله؟ أم كلمات الله تقرأون ما بين حروفها فتفهمون ما لا نفهمه نحن.

صدقتَ يا ابن عم رسول الله
فما سوء أخلاق الناس إلا من سوء أخلاق حكامهم
وما فساد الناس إلا من فساد حكامهم
وما مهانة الأمم إلا من مهانة حكامها

إلهي...
هل لنا من حاكمٍ صالحٍ يُصلح ما فسد فينا... أم هي سيئاتنا تغفرها لنا في الدنيا.

• • • • •



١٩٧٧

كنا في مدرسة الجيزة الثانوية، ولنا صديقٌ يسكن في شارع المتحف الزراعي بمواجهة المدرسة مباشرةً، وكنا دائمًا نذهب عنده بعد المدرسة؛ وأحيانًا قبلها؛ ووالدته رحمها الله لا تمانع، بل وترحِّب وتقدِّم لنا ما لذَّ وطاب من الطعام والشراب.

نحن الآن في الثانوية العامة، وذات يوم قررنا الذهاب لصديقى هذا، ولكن فجأه، وبدون مقدمات، وبلا إنذار مسبق، ومع عدم إبداء الاسباب أو تقديم أي أعذار... إذا به يطلب منا خلع الأحذية على الباب قبل الدخول وإلا فلا دخول... ظنناه في بادئ الأمر يمزح، ولكن الأمر جد خطير... تظاهرنا بالرجوع ومغادرة البيت لعله يلين، ولكن كان منه إصرارٌ لا هوادة فيه وقرارٌ لا رجعة فيه. فسألناه عن السبب: أجعلتم البيت جامعًا أوزاويةً أو وقفًا.. ولكن الجواب كان دائمًا: "لا".. فالسبب كان أن والدته فرشت الأرض بهذا الفراش الجديد "الموكيت".. وكنا في ذلك الوقت حديثي عهد بالموكيت هذا.

وقفنا عند الباب ننظر لبعضنا البعض ونحن في حيرة بين خلع الأحذية، ومالذَّ من الطعام. بالطبع فضَّلنا الطعام حتى لو كان بدون أحذية، وقلنا لصديقي: لو تحب أن نأتي على وضوء لفعلنا.. أو أمرت أن نطوف حول الصالون لطفنا.. لكن لا تحرمنا من موائد الرحمن.

يمرُّ شهر ونحن نخلع الأحذية على بابه، ولكني شعرت بالمهانة لهذا الحذاء القابع عند الباب ينتظرني كل يوم والحزن ملأ رباطه، فكتبت لصديقي هذا :

لِـمَ حـذائي علـى بابـك أخلعـهُ   وأنـا مـن سـهرت الليـالي أُلمعـهُ
إن سِـرت بـه أحسـنت موضـعهُ   وبرفـقٍ علـى الأرض أخطـو فأودعـهُ
فكأنـهُ يلمـس الأرض يُقبِّلـها   ونشـوة القُبلـة مـن الأرض ترفعـهُ
فمـا اعترضـت ريحًـا كثـر غبارُهُـا   ولا دخلـت حيًّـا قـذُرت شـوارعهُ

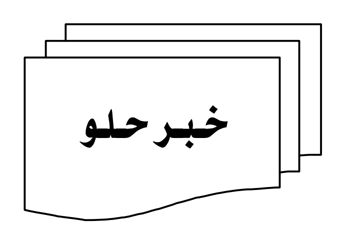
.....

أيـدوم فـراشُ علـى الأرض   بسـطهُ حتـى البلاط لا يـدُم
زاد جفـاك واشـتكاه حـذائي   يـا صـاحبى الأمـر قـد احتـدم
فـلا خـير فيـك إن أكـرمتني   وتركتـهُ علـى بابـك كالخـدم
فأعِـدهُ لـي أو عُـد بـي لـهُ   أنـا لا أصـاحب مـن ظلـم

.....

وعندما قرأتْ والدته هذه الأبيات سمحتْ لي؛ ولي فقط؛ بالدخول على الموكيت بالحذاء.. لكنني بالطبع كنت أخلعه، ولكني أخلعه بمحض إرادتي وبحُرٍّ إختياري، وحذائي شامخٌ فخورٌ بين باقي الأحذية، بغض النظر عن ثمنه أو حالته الصحية.

• • • • •



١٨ نوفمبر ٢٠١٢

في هذه الليلة سمعتُ طَرْقًا على باب بيتي، فأسرعتُ إلى الباب.. وقبل أن أفتح هاجمتني الظنون، فنظرتُ من عُقب الباب، فإذا به خبر حلو.. ففتحتُ الباب على مصراعيه بقوة وبلهفة، فإذا بالخبر الحلو يقف على بابي ويمسك في يديه أربعة إخوة له؛ اثنان في كل يدٍّ؛ وخامس صغير قد تعلَّق بقدمه اليمنى، وكلهم أخبار سيئة... فغابت البسمة التي كانت في عيوني، وأخذتُ خطوة إلى الخلف وقلتُ معاتبًا له :

- ألم تستطع أن تأتي بمفردك اليوم وتدخل بيتنا نفرح بك، ثم غدًا تدعو إخوتك الخمسة... أم إنك خشيت ألا أفتح لهم الباب إذا أقبلوا بمفردهم... ألا تعلم أن مفتاح بيتي مع إخوتك فهم يدخلون حتى بلا استئذان... آهٍ لو كنتَ أخرَّت مجيئهم للغد... فقط للغد... حتى نفرح بك يومًا.... يومًا واحدًا.

فنظر الخبر الحلو إلى الأرض خجلاً، وقال باستحياء:

- آهٍ لو تدري... فأنا ما جئتُ بخاطري، ولكن إخوتي الخمسة دفعوني إليك دفعًا، وجئتُ غصبًا عني وهم يقولون لي: " لابد أن تأتي معنا، فلا يصح أن ندخل بيت الرجل وأيدينا فارغة".

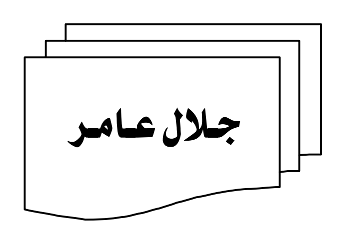
- جئتَ غصبًا إذن.

- نعم... وإن شئتَ دخلتُ؛ وإن أبيتَ عدتُ إلى حيث أتيتُ.

فقلت له وأنا لاحول لي ولا قوة:

- ادخل مع إخوتك، ولكن لا تنتظر مني كرمًا في استضافتك، ولا فرحًا بقدومك، ولا سعادةً بإقامتك بيننا، وذلك احترامًا لمشاعر إخوتك الخمسة.

• • • • •



رحم الله جلال عامر، ورحم الله كلماته ومعانيها..

كلمات قليلة، ولكن معانيها بلا حدود..

كلمات معدودة ومعانٍ لا تنتهي

معانٍ ليس لها حزب تنام عنده في المساء، ولكنها تسكن في القلوب

تسكن في قلبٍ حزين على وطن

أو قلبٍ يتألم لشهيد

أو قلبٍ مكسور لمظلوم

أو قلبٍ ممزَّق لغريب.

• • • • •



في هذه الليلة استحضرتُ شجوني، ولملمتُ خواطري.. فأمسكتُ بقلمي، وما إن لامس سطح أوراقي؛ حتى راح يجري بين سطورها حتى أن الكلمات سبقتْ معانيها، فشعرتُ بأني أريد أن أكتب وأكتب وأكتب...

وتمنيت لو ظللت ممسكًا بقلمي

منكبًا على أوراقي

أصرخ فيها

أشكو اليها

أبث همومي بين سطورها

أمسح على أحزاني بكلماتها

أبوح بجراحي في حروفها

أريد أن أكتب كل ما بخاطري..

أنادي على كل ما بقلبي من ذكريات

أريد أن أكتب.. ليس فقط لأني أُحبُّ الكتابة
أريد أن أكتب لأستريح قليلاً من الأيام وقسوتها.. أتذكر الماضي لأنسى به الحاضر ولو للحظات قليلة.
فعندما أكتب قصصًا من ذكرياتي، فأنا أهرب بها من الأيام، وأختبئ هناك بعيدًا عنها خلف أسوار الماضي الجميل، حيث كنا لا نفهم الدنيا.. والدنيا لا تعبأ بنا.

نعم أكتب لأهرب
أهرب من ظُلمة الطريق
أهرب من وحشة الليالي
أهرب من دموع تسيل بقلبي.. دموع لا يراها من حولي.. حتى أنا لا أراها
أهرب من آهاتي إذا ضحكت.. ومن آلامي إذا فرحت.. ومن شجوني إذا ارتحت
أهرب من كل شيء... إلى لا شيء
فأنا ما أتقنتُ في حياتى شيئًا كما أتقنتُ الهروب
وما عشقتُ بقلبي شيئًا كما عشقت الغروب
وما ارتحتُ إلا للسحاب والغيوم
وما حرَّك مشاعري إلا تساقط أوراق الشجر الصفراء في الخريف الحزين
حتى شبتُ كما شابت الأشجار حين تغطيها الثلوج

أهرب.. نعم أهرب من الأيام في ذكرياتي.. ولكنها لحظات حتى تراني الأيام خلف هذه الأسوار فتجذبني من يدي وتقذف في وجهي بمعولي فأمسك به لأنحتَّ في جبالها طرقات..
ثم تغفل عني ثانية فأجري هاربًا منها خلف ذكرى أخرى وقصة جديدة.. لكنها سرعان ما تراني فتمسك بناصيتي وتجرني إليها.

رحتُ أصرخ فيها: أيتها الأيام أنا قد كرهتك.. أنا لا أريدك، ولا أريدُ منكِ شيئًا.. فإذا بالأيام تمسك بثيابي، وإذا بلياليها تقبض على عنقي وتدفعني من ظهري لأسير أمامها كأسيرٍ مكبلٍ بالسلاسل والحديد، لتريني أولادي وهم نائمون، وتهددني بوجدان في قلبي تنزعها مني إن عصيتُها، فأنحني أمامها لأمسكَ بمعولي المُلقى على الأرض.

وقفتُ أضرب الصخر بمعولي، والدمع قد اختلط بعرقي وسال يجري على دروب جسدي المنهك وأنا أهمس لنفسي :

يا ليتني ما زلتُ طفلاً... أحبو هناك على شواطئ النسيان

أو ليتني ما كنت فلا الناس شعروا ولا الدنيا توقف لها دوران

اطمأنَّ للدنيا قلبي فغفلتُ عنها... والدنيا لا ترحم الغفلان

....

لكننى الآن تعبتُ من الهرب وكرهت النسيان وأجهدتني الذكريات سأستسلم لأيامي

ألقيت بقلمي

مزقت ورقتي

صرخت قائلاً:

أيها الماضي الجميل لا تلاحقني... فأنا ما عدتُ أنا

وهذه هي قصتي الأخيرة

• • • • •



المؤلف في سطور

- قاص وشاعر مصري، مغترب في كندا
- حاصل على بكالوريوس الهندسة، جامعة القاهرة ١٩٨٢
- حاصل على درجة الدكتوراه فى الهندسة المدنية
- مدرس بكلية الهندسة بالمطرية، جامعة حلوان
- له صفحة على الفيس بوك بعنوان "قلب مفتوح"

https://www.facebook.com/hganzouri

- عضو في صفحة واحة القصة القصيرة
- صدر له :

- حنين على الحدود : قصص قصيرة.
دار الروضة للنشر، القاهرة ٢٠١٢

- وادي الشيخ عبد العزيز، وقصص أخرى
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٥

- البريد الإلكتروني : hganz3@hotmail.com

الفهـرس



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004

www.shams-group.net